تخرّصات الجابري على التفسير والمفسّرين من خلال كتابه "فهم القرآن الحكيم" (دراسة نقدية)

إعداد

د. محمّد بن عبد العزيز المسند

الأستاذ المشارك بقسم الدراسات القرآنية

كلية التربية – جامعة الملك سعود بالرياض

ملخّص البحث

- **موضوع البحث**: دراسة نقدية لتفسير المفكر المغربي محمد عابد الجابري (فهم القرآن الحكيم ..).
- **أهداف البحث**:

١. الذود عن التفسير وأئمّته، من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

٢. نقد تفسير الجابري علىٰ وجه الخصوص وما فيه من التخرّصات والاعتراضات علىٰ التفسير وأئمّته.

٣. بيان حقيقة ما يسمّىٰ بالتفسير العصري للقرآن من خلال نقد تفسير الجابري الذي يعدّ مثالاً واضحـًا لهذا النوع من التفسير.

- **منهج البحث**: المنهج التحليلي النقدي.
- **أهمّ النتائج**:

١. تنوّع جهود الأعداء في النيل من هذا القرآن وآخرها ما يسمّىٰ بالقراءات الحداثية للقرآن من أجل رفع القدسية عنه.

٢. مشاركة بعض المخدوعين من أبناء المسلمين في هذه الجهود المضللة.

٣. توجّه بعضهم لتفسير القرآن ليس من أجل بيان معانيه وإنّما لإخضاعه للأفكار والثقافة الغربية.

٤. أنّ "العقل" نعمة كبرىٰ لكنّه إذا كان محكومـًا بالهوىٰ؛ صار وبالاً علىٰ صاحبه.

- **أهمّ التوصيات:**

١. أوصي الباحثين ببذل الكثير من الجهود في مواجهة هذا الحملات المضللة.

٢. أوصي الجامعات ومراكز البحوث بالعناية بمثل هذه التوجّهات التغريبية المضللة، وذلك بنشر الوعي بخطورتها، وطباعة البحوث والكتب التي تولّت الردّ عليها وكشف زيفها. كما أوصي الجامعات بتخصيص مادّة دراسية متخصّصة، تعنىٰ بذلك.وبالله التوفيق.

- **الكلمات المفتاحية:**

الجابريّ، نقد، التفسير، تخرّصات، الحضارة الغربية، مناهج

❊ ❊ ❊

المقدّمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيّ بعده، أمّا بعد:

فهذه دراسة نقدية لتفسير المفكر المغربي محمد عابد الجابري، والذي أثارت أفكاره وأطروحاته جدلاً كثيراً في الأوساط العلميّة والفكرية والثقافية، وقد ختم حياته بكتابة هذا التفسير، بأجزائه الثلاثة، وسمّاه: (**فهم القرآن الحكيم.. التفسير الواضح حسب ترتيب النزول**)، وقد قمت بقراءته، فلفت انتباهي فيه كثرة تخرّصاته واعتراضاته ومخالفته لأئمّة التفسير، وعامّة المفسّرين، فرأيت أن أقوم بهذه الدراسة النقدية لهذا التفسير، للوقوف علىٰ هذه التخرّصات والاعتراضات وتصنيفها تصنيفًا موضوعيًا، ثمّ نقدها نقداً علميًا لبيان خلفيتها الثقافيّة والفكريّة..

أهميّة البحث وسبب اختياره:

ويكمن ذلك في النقاط التاليّة:

١. تعلّقه بالقرآن الكريم، وبالتفسير علىٰ وجه الخصوص المبيّن لكلام الله تعالىٰ.

٢. تعلّقه بأئمّة التفسير، والذود عنهم، وتبرئتهم ممّا تُخُرّص به عليهم ممّا قد يغترّ به بعض الأغرار.

٣. تعلّقه بشخصية مثيرة للجدل (الجابريّ)، لها تأثير في بعض الأوساط الثقافيّة والفكريّة.

٤. تعلّقه بمنهج من المناهج العصريّة المحدثة والمضلّلة، والتي تلقىٰ دعمًا من قبل بعض الجهات والمراكز المشبوهة.

مشكلة البحث:

تتمثل في الأسئلة التالية:

١. من هو الجابري؟ وما مشروعه؟ وما منطلقاته الثقافيّة والفكريّة بشكل موجز؟

٢. ما موقفه من أقوال أئمّة التفسير، وما تخرّصاته عليهم؟ وما الحامل له علىٰ ذلك؟.

٣. ما نوع هذه التخرّصات؟ وما تصنيفها الموضوعي الجامع لها؟.

٤. ما حقيقة هذه التخرّصات؟ وما الجواب عنها وتفنيدها؟.

حدود البحث:

ليس مقصود هذا البحث الحديث عن شخص الجابري ونتاجه الثقافي والفكري بشكل عامّ ومفصّل، فهذا قد كُتب في الكثير، وأقيمت له ندوات ومحاضرات؛ وإنّما المقصود الاقتصار علىٰ تخرّصات الجابري علىٰ التفسير والمفسّرين، ونقدها نقداً علميّاً موثّقاً يبيّن حقيقتها وبطلانها.

أهداف البحث:

٣. الذود عن التفسير وأئمّته، من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

٤. نقد تفسير الجابري علىٰ وجه الخصوص وما فيه من التخرّصات والاعتراضات علىٰ التفسير وأئمّته.

٥. بيان حقيقة ما يسمّىٰ بالتفسير العصري للقرآن من خلال نقد تفسير الجابري الذي يعدّ مثالاً واضحاً لهذا النوع من التفسير.

منهج البحث:

المنهج الاستقرائي التحليلي النقدي، ويتجلّىٰ فيما يلي:

١. قراءة تفسير الجابري كاملاً، واستقراء ما فيه من التخرّصات والاعتراضات علىٰ التفسير والمفسّرين ثمّ تصنيفها تصنيفاً موضوعياً جامعاً علىٰ شكل مباحث رئيسة، كلّ مبحث يتضمّن عدداً من المطالب.

٢. الرجوع إلىٰ كتب التفسير للمقارنة بين ما فيها وبين ما ذكره الجابريّ من تخرّصات.

٣. البدء في الكتابة بجعل كلّ مطلب من مطالب البحث المندرجة تحت المباحث الرئيسة عنواناً لرأي من آراء الجابريّ المتضمّن لتخرّصه، أبدؤوه بتمهيد يوضح العنوان، ثم أذكر نص كلام الجابريّ موثّقاً من تفسيره، ثمّ أتبع ذلك بدراسة تبيّن ما في كلام الجابريّ من التخرّص والتدليس موثّقاً من كتب التفسير، مع ربط ذلك بمنهجه العام الذي سيأتي بيانه.

خطّة البحث:

وقد قسّمت البحث إلىٰ مقدّمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة، فأمّا المقدّمة فذكرت فيها أهمية هذا الموضوع وسبب اختياره ومنهجي في الكتابة. وأمّا التمهيد فجعلته في مطلبين الأوّل للتعريف بالدكتور الجابري، وفكره، وسياق توجهه إلىٰ الكتابة عن القرآن. والمطلب الثاني بيّنت فيه مكانته الفكرية عند أتباعه والمتأثرين به من أدعياء العقلانية والتنوير.

وأمّا المبحثان؛ فالأوّل جعلته بعنوان **التقليد للمذاهب العقدية والفكرية وأثره في كتابات الجابري عن فهم القرآن**. وتحته أربعة مطالب:

- المطلب الأوّل: إنكاره للغيبيات وبعض مسائل الاعتقاد.
- المطلب الثاني: انتصاره لمقالات متأخرة القدرية والمعتزلة.
- المطلب الثالث: ردّه الاحتجاج بالأحاديث الصحيحة أو تأويلها تأويلاً غير سائغ.
- المطلب الرابع: اعتراضه علىٰ القرآن والشرع فيما يراه متعارضًا مع "العقل الحداثي" وقيم الحضارة الغربيّة المعاصرة.

المبحث الثاني: القصور العلمي، والإخلال بالأمانة العلمية:

وتحته أربعة مطالب:

- المطلب الأوّل: تجاهله للسنّة الصحيحة، أو الجهل بها.
- المطلب الثاني: التدليس والتلبيس بغرض الدسّ والانتقاص.
- المطلب الثالث: جهله باللغة العربية.
- المطلب الرابع: الشذوذ والإغراب، والترجيح بمحض الهوىٰ والرأي.

وأمّا الخاتمة فذكرت فيها أهمّ النتائج والتوصيات.

الدراسات السابقة:

لم أقف علىٰ دراسة علمية تناولت بالتفصيل تخرّصات الجابريّ علىٰ المفسّرين من خلال تفسيره مع كثرتها، وإنّما هناك بعض المقالات التي تحدّثت بشكل عام عن هذا التفسير ومنهج مؤلّفه، من هذه المقالات:

١. " **مشاريع الجابري في دراسة القرآن الكريم.. بحث علميّ أم تشكيك في قالب بحث** " للأستاذ نبيل غزال(١).

٢. " **الجابري وتفسيره فهم القرآن الحكيم** " لعبد الرحمن الحاج(٢).

وهي كما ذكرت مقالات عامة الغرض منها بيان منهج الجابري ومنطلقاته الفكريّة في تعامله مع التراث والتفسير علىٰ وجه الخصوص.

أسأل المولىٰ ـ عزّ وجلّ ـ التوفيق والسداد، والهدىٰ والرشاد. شاكراً لكلّ من ساهم في تصويب هذا البحث وتحكيمه وتسديده.

❊ ❊ ❊

(١) نشر في صحيفة هسبرس الإلكترونية المغربيّة: m.hespress.com.

(٢) نُشر في موقع ملتقىٰ أهل التفسير، vb.tafsir.net/tafsir19800.

التمهيد

المطلب الأوّل: التعريف بالدكتور محمّد عابد الجابري ومنهجه في النقد

ولد محمد عابد الجابري نهاية عام ١٩٣٥ في مدينة فكيك شرقي المغرب، وارتقىٰ في مسالك التعليم في بلده، مدرسًا ثم ناظر ثانوية ثم مراقبًا وموجهًا تربويًا لأساتذة الفلسفة في التعليم الثانوي، ثم أستاذًا لمادة الفلسفة في الجامعة.

حصل عام ١٩٦٧ علىٰ دبلوم الدراسات العليا في الفلسفة، ثم علىٰ درجة الدكتوراه عام ١٩٧٠ من كلية الآداب التابعة لجامعة محمد الخامس بالرباط، وعمل أستاذا للفلسفة والفكر العربي والإسلامي بالكلية نفسها. ثمّ تقلّب بين قناعات فكرية مختلفة فكان أوّلاً متيّماً بالفكر الماركسي فكان قياديًا بارزًا في حزب الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية فترة طويلة، ثمّ انتقل إلىٰ الفكر الفلسفي (الفلسفة الوضعية)، ليصبح في أواسط الثمانينيات مهتمّاً بفكر أبي حامد الغزالي، ليختم حياته بالجامعة في أحضان الفكر العروبي لميشيل عفلق وأمثاله. وبعد تقاعده سنة (٢٠٠٠م) تفرّغ ـ باسم النقد ـ للتخرّص علىٰ الإسلام، وعلىٰ القرآن، وتفسيره تفسيراً عصريّاً يتناغم مع قيم الحضارة الغربية المعاصرة، حيث تمّ تسخيره لذلك، والاحتفاء به من قبل جهات تدّعي الليبرالية في المشرق العربي، بالتواطؤ مع جهات غربية تسعىٰ لتغريب المجتمع المسلم، وإخضاعه للثقافة الغربية. وهذه التقلّبات الفكرية للجابري تظهر جليّاً في عناوين كتبه التي ألّفها ونشرها، أو نُشرت له.

من مؤلفاته:

- العصبية والدولة: معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، وهو نص أطروحته لنيل الدكتوراه.
- مدخل إلىٰ فلسفة العلوم (جزآن).
- نحن والتراث: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي.
- الخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية.
- تكوين العقل العربي.

- بنية العقل العربي.
- إشكاليات الفكر العربي المعاصر.
- العقل السياسي العربي.
- التراث والحداثة: دراسات ومناقشات.
- مقدمة لنقد العقل العربي.
- المسألة الثقافية.
- المثقفون في الحضارة العربية الإسلامية، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد.
- مسألة الهوية: العروبة والإسلام... والغرب.
- الدين والدولة وتطبيق الشريعة.
- المشروع النهضوي العربي.
- الديمقراطية وحقوق الإنسان.
- قضايا في الفكر المعاصر (العولمة، صراع الحضارات، العودة إلىٰ الأخلاق، التسامح، الديمقراطية ونظام القيم، الفلسفة والمدينة).
- وجهة نظر: نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر.
- ابن رشد: سيرة وفكر ١٩٩٨.
- العقل الأخلاقي العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية.
- في نقد الحاجة إلىٰ الإصلاح.
- مدخل إلىٰ القرآن.
- فهم القرآن: التفسير الواضح حسب ترتيب النزول.

أمّا مشروعه النقديّ الذي يقوم عليه والذي أسماه (نقد العقل العربي) فقد سلك في تأسيسه ـ كما يقول أحد الباحثين[١] ـ منهجين: **المنهج البنيوي،** وهو نتاج ما

(١) هو الدكتور مختار الأخضر الفجاري، من مواليد القيروان بتونس، أستاذ مساعد بجامعة طيبة – كلية الآداب والعلوم الإنسانية.وهو من المهتمّين بنقد هذا الفكر، وله عدّة دراسات ومؤلّفات في ذلك، منها: (الفكر العربي الإسلامي: من تأويلية المعنىٰ إلىٰ تأويلية الفهم)، ومن دراساته: (خطاب نقد العقل في الفكر المغاربي بين الجابري وأركون) وغير ذلك.

يسمّىٰ بـ "الحداثة". **والمنهج المعرفي** (الابستملوجبي) وهو القائم علىٰ فلسفة العلوم، والقطيعة المعرفية بين السابق واللاحق. وقد قسم بنية العقل العربي إلىٰ ثلاث بُنىٰ رئيسة، أو ثلاث مدارس: **المدرسة الأولىٰ**:"**البيانية**" (ويعني بها المدرسة السنيّة الأثرية) وهي التي تقوم ـ كما يقول ـ علىٰ الاستدلال بالنصوص، لذا هي استدلالية، ويرىٰ أنّها أصيلة غير وافدة، لكنّها تقوم ـ كما يقول ـ علىٰ العاطفة والانفعالات!، لذا فهي تدغدغ مشاعر المتلقّي، بل تحدث له نوعـًا من التنويم المغناطيسي!، هكذا يزعم مفتريـًا!. **المدرسة الثانية**: "**العرفانية**" وهي ـ كما يقول ـ بنية حدسية، تقوم علىٰ ما يشبه الخرافة أو اللاعقلانية ،كالتشيّع والتصوّف. ويرىٰ أنّ هذه المدرسة ليست أصيلة بل وافدة من الشرق القديم. ويصف عقل أصحابها بـ "العقل المستقيل". وهو كما ذكر. **المدرسة الثالثة**: "**البرهانية**" وهي التي ـ كما يقول ـ تقوم علىٰ الاستقراء، وتتبع مقولات المنطق. ومصدرها يوناني. والحقيقة أنّها تقوم علىٰ المحسوس وتقديس العقل، وتقديمه علىٰ النصوص حين تتعارض مع منطقهم، وهي التي تبنّاها الفكر الاعتزالي القديم، أو "الحركة التنويرية" كما يطلق عليها الجابريّ. ويرىٰ أنّ هذه الحركة أنتجت نهضة وفكراً أوصلها إلىٰ الدولة أيام الخليفة المأمون!. ومع أنّ الجابريّ وأمثاله يدندنون كثيراً حول حريّة الرأي والمعتقد، فلا أعلم كيف يثني علىٰ هذه الدولة الاعتزالية القمعية، ويصفها بالحركة التنويرية، وهي التي اضطهدت العلماء والناس لحملهم علىٰ اعتقاد عقيدة تخالف عقيدتهم، وهي عقيدة خلق القرآن! فهذا تناقض لا يمكن قبوله. وهذه البنية التي أسماها "البرهانية" هي التي اعتمد عليها في نقده لما أسماه بالعقل العربي، وهي التي حملته علىٰ إنكار بعض الغيبيات الثابتة، وردّ الكثير من النصوص الشرعية الصحيحة، وجرأته علىٰ أهل العلم وأئمّة التفسير وغيرهم، وهو ليس من أهل هذا الشأن، كما سيتبين من خلال مباحث هذه الدراسة النقدية، ولمزيد من التوضيح فإنّ هذه الاتجاه "الحداثيّ" الغربي أو المستغرب، يغالي في رفع شأن العقل، وجعله حاكمـًا علىٰ النصوص المقدّسة، فالعقلنة في التطبيق الغربي للحداثة ـ كما يقول

البروفيسور طه عبد الرحمن[1] ـ تقوم علىٰ ثلاث مسلّمات، هي: (أنّ العقل يعقل كلّ شيء)، و (أنّ الإنسان يسود الطبيعة)، و (أنّ كلّ شيء يقبل النقد)![2]. ثمّ يذكر ـ موضّحًا ـ أنّ هذه القراءات الحداثية اتّبعت خططًا انتقادية في تفسيرها للآيات القرآنية لإزالة عائق البعد الديني والاعتقادي أو تحجيمه، وهي ثلاث خطط رئيسة، **الخطّة الأولىٰ**: "**التأنيس**" أو "الأنسنة"، وتستهدف رفع عائق القدسية عن القرآن، وذلك بنقل الآيات القرآنية من الوضع الإلهي إلىٰ الوضع البشريّ. **الخطّة الثانية**: "**التعقيل**" أو "العقلنة"، وتستهدف رفع عائق الغيبيّة، وذلك بالتعامل مع الآيات القرآنية بكلّ وسائل النظر والبحث التي توفّرها المنهجيات والنظريات الحديثة. الخطّة الثالثة: "التأريخ" أو "الأرخنة"، وتستهدف رفع عائق الحُكْمية (اعتقاد أنّ القرآن جاء بأحكام ثابتة أزلية)، وذلك بقصر الآيات علىٰ ظروف بيئتها وزمنها، وبسياقاتها المختلفة. وقد أطال البروفيسور طه في شرح هذه الخطط وبيان تفاصيلها، ثمّ قام بنقدها وتفنيدها بكلام قيّم ومؤصّل. والخلاصة فيما نحن بصدده، أنّ " هذه القراءات الحداثية لا تريد أن تحصّل اعتقاداً من الآيات القرآنية، وإنّما تريد أن تمارس نقدها علىٰ هذه الآيات "[3]. هذا ما يتسع المقام لذكره في مثل هذا البحث، وبالله التوفيق.

❊　　❊　　❊

(١) البروفيسور طه عبد الرحمن الفيلسوف المغربي، هو من أفضل من تحدّث عن الحداثة، وأسّس لها، ونقد الحداثة الغربية في كتابه القيّم (روح الحداثة، المدخل إلىٰ تأسيس الحداثة الإسلامية).

(٢) روح الحداثة: ص٤٣.

(٣) روح الحداثة: ص ١٧٦.

المطلب الثاني: مكانة الجابريّ الفكريّة

لا يجادل أحد أنّ الجابري تبوأ مكانة في الساحة الفكرية والثقافية، وكَتَب عنه الكثير، ما بين مادح وقادح وناقد ـ بصرف النظر عن مدىٰ استحقاقه لذلك ـ فهو من الرموز الفكرية المعاصرة المثيرة للجدل، لا سيما مشروعه الذي أسماه: (نقد العقل العربيّ)، والذي ـ فيما يبدو ـ لقي قبولاً من قبل بعض الدوائر الغربية، فلن يجدوا للترويج لثقافتهم أفضل من الجابري وأمثاله، فالشجرة ـ كما يقول أحدهم ـ لا بدّ أن يتسبب في قطعها أحد أغصانها! ولذا سعت تلك الدوائر، بالتعاون مع المستغربين من أبناء أمتنا لمنح الهالة الكبرىٰ لأمثال هؤلاء المفكرين، ومنحهم الجوائز والأوسمة، ليقوموا بدورهم المرتقب، ولئن اغترّ بذلك بعضٌ من أبناء أمّتنا؛ فقد تنبّه لذلك الكثيرون، بفضل الله ثمّ بجهود المخلصين من العلماء والمفكّرين الأحرار، المعتزين بدينهم وثقافتهم الإسلامية. الذين تولّوا كشف هذا الفكر، وتعريته من مبتداه، من أمثال كتابات الأستاذ العربي الناصري القديمة (الفكر الإسلامي في مواجهة التحليل الماركسي) و(الانحدار الماركسي في العالم الإسلامي)، ثمّ كتاب (تجديد المنهج في نقد التراث) للبروفيسور طه عبد الرحمن، وكتاب (العقل العربيّ: المسكوت عنه واللامفكر فيه في مقاربات العقل العربي) للأستاذ محمّد الصوياني. ومن آخرها كتاب البكاري وبو علام بعنوان: (الشُبَه الاستشراقية في كتاب مدخل القرآن للجابري). وقد تولّىٰ الردّ عليه أيضاً ونقد كتاباته من التيارات الأخرىٰ؛ المفكّر السوري العلماني جورج طرابيشي في كتابه (نقد نقد العقل العربيّ)، والمفكر البحريني القومي محمّد جابر الأنصاري في كتابه (مساءلة الهزيمة) وغيرهما. وما هذا الجهد المتواضع إلا لبنة من اللبنات في هذا السبيل.

* * *

المبحث الأوّل

التقليد للمذاهب العقدية والفكرية وأثره في كتابات الجابري عن فهم القرآن

إنّ الجانب العقديّ والفكري هو من أهمّ ما يلاحظ علىٰ كتابات الجابريّ، تأثّراً بالمنطلقات الفكرية والثقافية التي ينطلق منها كما سبق بيانه، وقد ظهر أثر ذلك جليّا في (فهمه) للقرآن، وتفسيره تفسيراً يتوافق مع تلك المنطلقات والأفكار، وبيان ذلك في المطالب التالية:

المطلب الأوّل: إنكار الغيبيات وبعض مسائل الاعتقاد.

ومن ذلك:

١. **إنكاره لخروج الدابّة في آخر الزمان.**

فهو ينكر خروج الدابّة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنّة الصحيحة، وقد حمل ذلك علىٰ مجرّد السخرية بالكفّار! فعند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ [النمل: ٨٢] قال: " ذهب المفسّرون في شرح هذه الآية مذهباً لا يتّسق مع أسلوب القرآن في الدعوة والإقناع، والذي جرّهم إلىٰ ذلك ما انتقل إليهم من الموروث القديم وأساطير الأوّلين حول ما نسج حول (دابّة) يقال إنّها هي التي يُبتدئ بها قيام الساعة، ومثل هذا التفكير لا يتّسق مع منهج القرآن. ونحن نرىٰ أنّ الرجوع إلىٰ السياق يغني عن جميع تلك الخزعبلات. فلقد وصف قريش [هكذا] بالصمّ والعمىٰ: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ فهم كالدوابّ، ففي هذا الإطار يجب فهم الآية أعلاه: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾، والمعنىٰ: هم لا يسمعون كلام العقل فهم دوابّ، من أجل ذلك قرّرنا أنّه يوم تقوم القيامة ويُنادَون للحساب نبعث بدابّة تكلّمهم، وتخبرهم أنّ الناس الناجين يوم القيامة كانوا في الدنيا يوقنون بآيات الله. هم دوابّ فلا يفهمون إلا كلام الدوابّ. وهذا علىٰ سبيل السخرية"(١). هكذا يفسّر خروج الدابّة بهذا التفسير الغريب! وإنّ القارئ لكلامه

(١) فهم القرآن: ١/ ٣٢٩.

ليتملّكه العجب ممّا احتواه من جرأة عجيبة على النصوص، ممزوجة بجهل وغرور، فخروج الدابّة، الذي هو من أوائل علامات الساعة الكبرى، ثابت في الأحاديث الصحيحة[٢]، فكيف يصفه بأنّه " **من الموروث القديم وأساطير الأوّلين** "! لمجرّد أنّ عقله لا يحتمل ذلك. نعم، قد وردت أحاديث منكرة في وصف هذه الدابّة، لكنّ هذا لا يسوّغ ردّ الصحيح أو تجاهله إلا لهوى، ولذا كان مسلك الراسخين في العلم، أصحاب العقول السليمة، التفريق بين ما يُقبل وما لا يُقبل من النصوص، والوصول إلى رأي سليم معتدل، مثل ما فعل الشيخ عبد الرحمن السعديّ ـ رحمه الله ـ، فإنّه قال عند تفسيره لهذه الآية: " وهذه الدابّة هي الدابّة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان، وتكون من أشراط الساعة كما تكاثرت بذلك الأحاديث، ولم يأت دليل يدلّ على كيفيتها، ولا من أيّ نوع هي، وإنّما دلّت الآية الكريمة على أنّ الله يخرجها للناس فتكلّمهم، وأنّ هذا التكلّم منها خارق للعوائد المألوفة، وأنّه من الأدلّة على صدق ما أخبر الله به في كتابه والله أعلم "[٣]. وقول الشيخ " ولم يأت دليل يدلّ على كيفيتها، ولا من أيّ نوع هي " لعلّه يريد: لم يأت دليل صحيح، وإلا فقد وردت أحاديث كثيرة في بيان صفتها ونوعها ومكان خروجها..، لكن لم يصحّ منها شيء، ولذا قال أبو حيّان ـ رحمه الله ـ بعد أن أثبت خروج هذه الدابّة: " واختلفوا في ماهيتها وشكلها ومحلّ خروجها وعدد خروجها، ومقدار ما يخرج منها، وما تفعل بالناس، وما الذي تخرج به، اختلافاً مضطرباً معارضاً بعضه بعضاً، ويكذّب بعضه بعضاً، فاطّرحنا ذكره، لأنّ نقله تسويد للورق بما لا يصحّ، وتضييع لزمان نقله "[١]. وقد أحسن رحمه الله.

أمّا إنكار أصل خروج الدابّة على أنّها علامة من علامات قيام الساعة ـ كما فعل الجابريّ وأضرابه ـ من أصحاب المنهج العقلي السقيم، فقد أجاب عنه المحقّق القدير أحمد الشاكر ـ رحمه الله ـ في تعليقه على المسند، وأجاد فقال: " والآية

(٢) سيأتي بإذن الله في المبحث الثاني ذكر الأحاديث الصحيحة الواردة في ذلك في مطلب تجاهل السنّة الصحيحة.

(٣) تيسير الكريم الرحمن: ص ٦١٠.

(١) البحر المحيط: ٧/ ٧٢.

صريحة بالقول العربيّ أنّها (دابّة) ومعنىٰ الدابّة في لغة العرب معروف واضح، لا يحتاج إلىٰ تأويل، وقد بيّن الحديث بعض فعلها، ووردت أحاديث كثيرة في الصحاح وغيرها بخروج هذه الدابّة الآية، وأنّها تخرج آخر الزمان، ووردت آثار أخر في صفتها لم تنسب إلىٰ رسول الله ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ المبلّغ عن ربّه والمبيّن آيات كتابه، فلا علينا أن ندعها. ولكنّ بعض أهل عصرنا من المنتسبين إلىٰ الإسلام، الذين فشا فيهم المنكر من القول، والباطل من الرأي، الذين لا يريدون أن يؤمنوا بالغيب، ولا يريدون إلا أن يقفوا عند حدود المادّة التي رسمها لهم معلموهم وقدوتهم من ملحدي أوربّا الوثنيين الإباحيين، المتحلّلين من كل خلق ودين، فهؤلاء لا يستطيعوا أن يؤمنوا بما نؤمن به، ولا يستطيعون أن ينكروا إنكاراً صريحاً، فيجمجمون ويحاورون ويداورون، ثمّ يتأوّلون فيُخرجون الكلام عن معناه الوضعي الصحيح للألفاظ في لغة العرب، يجعلونه أشبه بالرموز لما وقر في أنفسهم من الإنكار الذي يبطنون!. بل إنّ بعضهم لينقل عن رجل هنديّ معروف أنّه من طائفة تنتسب للإسلام وهي له عدوّ مبين، وعبيد لأعدائه المستعمرين! فانظر إليهم أنّىٰ يتردّدون ويُصرفون؟ وأيّ نار يقتحمون؟ ذلك بأنّهم بآيات الله لا يوقنون"(٢).

٢. إنكاره لعذاب القبر :

فعند قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ١٥٤﴾ [البقرة: ١٥٤] قال: " وبعض المفسّرين يتّخذون من هذه الآية دليلاً علىٰ عذاب القبر، ذلك أنّه لمّا كان القرآن خالياً من ذكر عذاب القبر، مع أنّه أطال في ذكر ما يجري بعد الموت وقيام القيامة من بعث وحساب وثواب وعقاب، وكرّر ذلك مراراً كما بينّا سابقاً، فإنّهم يحاولون دعم فكرة عذاب القبر ـ الغريبة عن القرآن ـ بتأويل آيات بطريقة من يريد أن يستخرج منها ما يريد هو، وليس ما تقوله وتقرّره هي.."إلىٰ آخر ما ذكر(١)، وهذا الكلام في غاية العجب، وهو باطل من وجوه:

(٢) مسند الإمام أحمد بتحقيق الأستاذ أحمد محمّد شاكر: ١٥/ ٨٢.

(١) فهم القرآن: ٣/ ٥٩.

أحدها: أنّ عذاب القبر ثابت في الأحاديث الصحيحة التي تجاهلها الجابريّ علىٰ عادته في ذلك نصرة لمذهب الاعتزال. **الثاني:** أنّ هناك آيات في القرآن فيها إشارة واضحة إلىٰ عذاب القبر. **الثالث:** إجماع الصحابة علىٰ إثباته. وقد أبان عن ذلك الإمام الأشعري رحمه الله في كتابه الإبانة، فقال: " وأنكرت المعتزلة عذاب القبر أعاذنا الله منه، وقد رُوي عن النبي، صلّىٰ الله عليه وسلّم، من وجوه كثيرة، وروي عن أصحابه رضي الله عنهم أجمعين، وما روي عن أحد منهم أنّه أنكره ونفاه وجحده، فوجب أن يكون إجماعـًا من أصحاب النبي، صلّىٰ الله عليه وسلّم ". ثمّ ساق رحمه الله الأحاديث الواردة في عذاب القبر، منها حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلّىٰ الله عليه وسلّم: ((**تعوّذوا بالله من عذاب القبر**))(٢)، وحديث أم خالد بنت خالد بن سعيد ابن القاضي رضي الله عنها أنّها سمعت رسول الله صلّىٰ الله عليه وسلّم يتعوّذ من عذاب القبر أعاذنا الله منه وحديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلّىٰ الله عليه وسلّم أنّه قال: ((**لو لا أن تدافنوا لسألت الله عزّ وجلّ أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمعني**))(٣). ثمّ ذكر الأشعريّ رحمه الله الأدلّة من القرآن فقال: " وممّا يبيّن عذاب الكافرين في القبور: قول الله تعالىٰ: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٦] فجعل عذابهم يوم تقوم الساعة بعد عرضهم علىٰ النّار في الدنيا غدوّاً وعشيّـًا. وقال تعالىٰ: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ [التوبة: ٩] مرّة بالسيف ومرّة في قبورهم، ثم يردّون إلىٰ عذاب غليظ في الآخرة. وأخبر الله تعالىٰ أنّ الشهداء في الدنيا يرزقون ويفرحون بفضل الله تعالىٰ، قال الله تعالىٰ:﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ ﴾[آل عمران:١٦٩-١٧٠] وهذا لا

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجنّة، وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنّة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر: ص٧٢٥، برقم: ٢٨٦٧.

(٣) التخريج السابق، برقم: ٢٨٦٨.

يكون إلا في الدنيا، لأنّ الذين لم يلحقوا بهم أحياء لم يموتوا ولا قتلوا ".[1] أمّا اتهامه المفسّرين بأنّهم يؤولون الآيات بطريقة من يريد أن يستخرج منها ما يريد هو، وليس ما تقوله وتقرّره..! فما أصدق هذا الوصف عليه هو لمن تأمّل كتاباته وفهمه للقرآن، علىٰ قول المثل العربي: (رمتني بدائها وانسلّت).

٣. نفيه لحقيقة نعيم الجنّة وعذاب النار وقصص القرآن، وأنّ ذلك من قبيل ضرب المثل!.

قال عند قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾...الآية[المدّثّر: ٣١]: "تهكّم خصوم الدعوة المحمّدية من عدد ١٩ لكونه قليلاً في نظرهم، حتّىٰ قال بعضهم أنا أكفيكم منهم كذا، فاكفوني الباقين. أمّا شجرة الزقوم فقد اعترضوا عليها قائلين: كيف ينمو الشجر في جهنّم وهي نار، والنار تأكل الشجر؟ وقد أورد المفسّرون أقوالاً كثيرة في الموضوعين، وهي في نظرنا(!) مجرّد تخمينات، لأنّها لا تجد ما يشرحها أو يسندها من القرآن. ونحن نرىٰ أنّ ما ورد في القرآن من أوصاف ونعوت للجنّة والنار هي من قبيل ضرب المثل، فما وصف به نعيم الجنّة هو من أجل الترغيب ، وما ورد بخصوص عذاب جهنّم هو للترهيب والتخويف، ومثل أوصاف الجنّة والنّار، ما ورد في القصص القرآني وفي غيره من الماورائيات.."[2]. وقال في موضع آخر: " وعلىٰ هذا فليست الجنّة هي الأنهار والأشجار، الخ، بل هي رمز للتمتّع والسعادة، كما أنّ النّار رمز للعذاب والشقاء"[3].

هذا نصّ كلامه، وهو في غاية الخطورة، بل هو في حقيقته تكذيب للقرآن ولما جاءت به الرسل عليهم السلام، وليس هذا القول ممّا ابتدعه الجابريّ، فهو إنّما يردّد أقوال من سبقه من الفلاسفة والباطنية وغيرهم، وقد بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بطلان هذا الاعتقاد، وأنواع المكذّبين بالبعث والنشور، فقال: " الأكل

(١) الإبانة عن أصول الديانة: ص ٢٤٨- ٢٥٠.
(٢) فهم القرآن: ٣/ ١٧٤.
(٣) المصدر السابق: ٣/ ٢٦٧.

والشرب في الجنّة ثابت بكتاب اللّه، وسنّة رسوله، وإجماع المسلمين. وهو معلوم بالاضطرار من دين الإسلام. وكذلك الطيور والقصور في الجنّة بلا ريب، كما وصف ذلك في الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي، صلّىٰ الله عليه وسلّم، وكذلك أنّ أهل الجنّة لا يبولون ولا يتغوّطون ولا يَبْصُقون، لم يخالف من المؤمنين باللّه ورسوله أحد، وإنما المخالف في ذلك أحد رجلين: إمّا كافر، وإمّا منافق. أمّا الكافر، فإنّ اليهود والنصارىٰ ينكرون الأكل والشرب والنكاح في الجنّة، ويزعمون أنّ أهل الجنّة إنما يتمتّعون بالأصوات المطربة، والأرواح الطيبة، مع نعيم الأرواح، وهم يقرُّون مع ذلك بحشر الأجساد مع الأرواح، ونعيمها وعذابها. وأمّا طوائف من الكفّار وغيرهم، من الصابئة والفلاسفة ومن وافقهم، فيقرُّون بحشر الأرواح فقط، وأنّ النعيم والعذاب للأرواح فقط، وطوائف من الكفّار والمشركين وغيرهم ينكرون المعاد بالكلية، فلا يقرّون لا بمعاد الأرواح، ولا الأجساد، وقد بيَّن الله تعالىٰ في كتابه علىٰ لسان رسوله أمر معاد الأرواح والأجساد، وردّ علىٰ الكافرين والمنكرين لشيء من ذلك، بياناً تاماً غاية التمام والكمال. وأمّا المنافقون من هذه الأمّة الذين لا يقرّون بألفاظ القرآن والسنّة المشهورة، فإنّهم يحرّفون الكلام عن مواضعه، ويقولون: هذه أمثالٌ ضربت لفهم المعاد الروحاني، وهؤلاء مثل القرامطة الباطنية الذين قولهم مؤلّف من قول المجوس والصابئة، ومثل المتفلسفة الصابئة المنتسبين إلىٰ الإسلام، وطائفة ممّن ضاهوهم: من كاتب، أو متطبّب، أو متكلّم، أو متصوّف، كأصحاب رسائل إخوان الصفا وغيرهم، أو منافق، وهؤلاء كلّهم كفّار يجب قتلهم باتّفاق أهل الإيمان "[1].

وذكر رحمه الله تعالىٰ في موضع آخر أنّ باطنية الفلاسفة "يفسّرون ما وُعد الناس به في الآخرة بأمثال مضروبة لتفهيم ما يقوم بالنفس بعد الموت من اللذّة والألم، لا بإثبات حقائق منفصلة يُتنعّم بها، ويُتألم بها "[2].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ: ٤/ ٣١٤.

(٢) المصدر السابق: ١٠/ ٢٢٢.

وقد سمّىٰ شيخ الإسلام رحمه الله هذا الصنف من المتفلسفة المخالف لما عليه المسلمون في أمر المعاد (بأهل التخييل)، وقال فيهم: " فأهل التخييل هم المتفلسفة ومن سلك سبيلهم، من متكلّم ومتصوف ومتفقه، فإنهم يقولون: إنّ ما ذكره الرسول من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر إنّما هو تخييل للحقائق لينتفع به الجمهور، لا أنّه بيَّن به الحق، ولا هدىٰ الخلق، ولا أوضح الحقائق "(٣). ولا يخفىٰ تهافت هذا القول وبطلانه، وإنّ ما حمل هؤلاء علىٰ هذه الأقوال المنكرة؛ قياس تلك الغيبيات علىٰ أمور الدنيا المحسوسة، وإخضاعها لعقولهم القاصرة، وما علموا أنّ تلك الغيبيات لا مدخل للعقل فيها، ولذا مدح الله عباده المتقين بأنّهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:٣]، بل جعل ذلك أوّل صفاتهم علىٰ الإطلاق. والحضارة الغربية اليوم تقوم علىٰ هذا المنهج المادي المحسوس، الذي يريد إخضاع كلّ شيء للتجربة المحسوسة والكفر بما سوىٰ ذلك، أو التشكيك فيه، وهو منهج ماديّ بهائمي، بل إنّ البهيمة لديها من التوكّل علىٰ الله والثقة به، ما ليس عند هؤلاء، ولذا قال الله عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[الأعراف:١٧٩].والواجب في مثل هذه المسائل الغيبية الإيمان والتسليم للنصوص والإيمان بها كما جاءت.

❊ ❊ ❊

(٣) المصدر السابق: ٥/ ٣١.

المطلب الثاني: الانتصار لمقالات متأخرة القدرية والمعتزلة

الجابري لا يخفي إعجابه الشديد ببعض المقالات المخالفة لمذهب أهل السنّة، فكثيراً ما ينتصر للآراء الاعتزالية ومتأخرة القدرية وغيرها ، ومن ذلك:

١. **مسألة خلق أفعال العباد.**

عند تعليق الجابريّ على قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ ﴾ [الفلق: ٤]، نقل كلام القرطبيّ ـ رحمه الله ـ عن السحر، وهل له حقيقة أم ليس له حقيقة، لكنّ الجابريّ هنا قام بجريمة نكراء ـ ليست هي الأولى من نوعها كما سيأتي ـ إذ إنّه قام ببتر الكلام بطريقة ماكرة توحي بتناقض القرطبيّ ـ رحمه الله ـ، وفي الوقت نفسه فيها كتم للحقّ، إذ إنّ القرطبيّ ـ رحمه الله ـ في النصّ المبتور ذكر اتّفاق المفسّرين على أنّ سبب نزول سورة الفلق ما كان من سحر لبيد بن الأعصم، وهو ممّا خرجّه البخاريّ ومسلم وغيرهما عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وهذا ما لا يتوافق مع رأي الجابريّ الذي يرى رأي المعتزلة في أنّ السحر ليس له حقيقة، فلذلك قام بحذف هذا النصّ عند النقل دون أدنى إشارة تدلّ على ذلك، وختم تعليقه الماكر بقوله: " وبعد، فكيف نفهم هذا الاختلاف في وجهة نظر القرطبيّ: تارة ينفي وجود السحر، ويورد مواقف فقهية بوجوب قتل الساحر، وتارة يقول بوجود السحر ويهاجم نفاته ومنكريه!". ثم أجاب عن ذلك بقوله: " الجواب: هو أنّ أصل هذا التناقض في موقف القرطبيّ ومن ذهب مذهب الأشاعرة عموماً يرجع إلى المسألة التي عبّر عنها المعتزلة بـ (خلق الأفعال) أي إثبات القدرة للإنسان على إتيان أفعاله بحريّة وإرادة، وهدفهم من ذلك إثبات المسؤولية، وبالتالي سريان الوعد والوعيد، وهذه مسائل سنوضّحها لاحقاً، كلٌ في المكان المناسب "(١). ومن يقرأ كلام القرطبيّ بتمامه بتجرّد وإنصاف لا يرى فيه أيّ تناقض، بل يرى فيه كلاماً علميّاً جامعاً لما يتعلّق بهذه المسألة وما فيها من اتّفاق واختلاف.

---

(١) فهم القرآن: ١/ ٧٩. وينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبيّ: ٢/ ٤١. وبإمكان الباحث المتجرّد أن يقارن بين النصّين الأصليّ والمنقول، ليكتشف البتر المذكور.

أمّا مسألة خلق الأفعال التي ذكرها الجابريّ، فهو مذهب أهل الاعتزال، والجابريّ علىٰ عادته ينتصر لمذهب المعتزلة(١)، وقد ذكر الإمام البخاريّ ـ رحمه الله ـ في كتابه (خلق أفعال العباد) أنّ المعتزلة ادّعوا أنّ فعل الله مخلوق، وأنّ أفعال العباد غير مخلوقة، قال: " وهذا خلاف علم المسلمين "(٢).

٢. مسألة إشهاد الذريّة.

قال الجابريّ عند قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢]: " ذهب المفسّرون في هذه الآية مذاهب بعيدة في التأويل ليجعلوها متلائمة مع الفكر في زمانهم. وذلك لا يستقيم اليوم! وأقرب تفسير إلىٰ معهود العرب وإلىٰ النصّ، ما ذكره الزمخشريّ إذ اعتبر النصّ عبارة عن تمثيل،، قال: (إخراجهم من أصلابهم نسلاً [عاقلاً] وإشهادهم علىٰ أنفسهم. أما قوله تعالىٰ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ فهو من باب التمثيل والتخييل. ومعنىٰ ذلك أنّه نصب لهم الأدلّة علىٰ ربوبيته ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركّبها فيهم، وجعلها مميزة بين الضلالة والهدىٰ، فكأنّه أشهدهم علىٰ أنفسهم وقرّرهم وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ ؟ وكأنهم قالوا: بلىٰ أنت ربّنا، شهدنا علىٰ أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك) "(٣).

حاصل ما ذكره المفسّرون في معنىٰ الإشهاد في هذه الآية قولان: الأوّل أنّه إشهاد علىٰ الحقيقة، وهو قول جمهور أهل العلم. والثاني أنّه علىٰ سبيل التمثيل والتخييل وهو قول المعتزلة ومن وافقهم. والجابريّ علىٰ عادته في التهويل، ونصرة المذهب الاعتزالي لم يذكر القول الأوّل مع ما ورد فيه من النصوص الشرعية والآثار المرويّة، وأوهم القاريء بأنّ القائلين به ذهبوا مذاهب بعيدة ـ علىٰ حدّ قوله

(١) الجابريّ يقرر مذهب المعتزلة في كثير من المواضع من كتابه، ينظر علىٰ سبيل المثال: ١/ ١٥٢، ١٨٢، ٢٣٨، ٢٥٠، وغيرها.

(٢) خلق أفعال العباد: ص٧٥. وللاستزادة في هذا الموضوع يراجع: شرح أصول اعتقاد أهل السنّة والجماعة للالكائي: ٤/ ٦٩٤.

(٣) فهم القرآن: ١/ ٢٣٨.

ـ! وجاء قوله متناقضـاً، فهو قد ذكر أنّ قول الجمهور صالح لزمانهم ولا يستقيم اليوم، ثمّ ذكر أنّ القول الذي اختاره أقرب إلىٰ معهود العرب، فكيف يستقيم ذلك! وهل كان السلف يجهلون معهود العرب؟. ثمّ ما معهود العرب الذي يتحدّث عنه الجابريّ، والآية تتحدّث عن أمر غيبيّ، فما شأن العرب بمثل هذه الأمور الغيبية التي لا يُعرف معناها إلا عن طريق الوحي! ولذا أنكر كثير من المفسّرين هذا القول، وأثبتوا القول الآخر الذي تشهد له النصوص والآثار، وأشهر ما رُوي في ذلك حديث عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ أنّه سئل عن هذه الآية فقال: سمعت رسول الله ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ، يسأل عنها فقال: ((**إنّ الله تعالىٰ خلق آدم ثمّ مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريّة، فقال: خلقت هؤلاء للجنّة وبعمل أهل الجنّة يعملون. ثمّ مسح ظهره فاستخرج منه ذريّة فقال: خلقت هؤلاء للنّار وبعمل أهل النّار يعملون..**))[١] الحديث.. وهذا الحديث قد تُكلّم في إسناده، لكن قال القرطبيّ ـ رحمه الله ـ: " معنىٰ هذا الحديث قد صحّ عن النبيّ ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ من وجوه ثابتة كثيرة من حديث عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ وعبد الله بن مسعود، وعليّ بن أبي طالب، وأبي هريرة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ وغيرهم. ثمّ ساق بعض الروايات في ذلك[٢]. وقال ابن عطيّة ـ رحمه الله ـ بعد أن ذكر القول الثاني: " وهذا قول ضعيف منكب عن الأحاديث المأثورة، مطّرح لها "[٣].

أمّا الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ فقد اختار القول الثاني، وردّ الأوّل، واحتجّ بما يلي:

١ ـ إنّ الإشهاد عليهم الوارد في الأحاديث ما هو إلا في حديث كلثوم بن جبر، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس. وفي حديث عبد الله بن عمرو. وهما موقوفان لا مرفوعان.

(١) أخرجه مالك في الموطأ في كتاب القدر، باب النهي عن القول بالقدر: ٢/ ٨٩٨، رقم: ١٥٩٣، وأحمد في المسند: ١/ ٤٤، رقم: ٣١١، وأبو داود في كتاب السنّة، باب في القدر: ٢/ ٦٣٩، رقم: ٤٧٠٣، والترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأعراف: ٥/ ٢٢٦، رقم: ٣٠٧٥، وضعّفه الألبانيّ في السلسة الضعيفة: ٧/ ٧٢، وقال الأرنؤوط في تعليقه علىٰ المسند: صحيح لغيره.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٢٧٥.

(٣) المحرّر الوجيز: ٢/ ٥٤٤.

٢ـ أنّ الله جعل هذا الإشهاد حجّة عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قال من قال، لكان كلّ أحد يذكره ليكون حجّة عليه. فإن قيل: إخبار الرسول ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ به كاف في وجوده فالجواب أنّ المكذّبين من المشركين يكذّبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وهذا جُعل حجّة مستقلّة عليهم، فدلّ علىٰ أنّه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد(١).

هذا حاصل ما استدلّ به الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ، فأمّا الدليل الأوّل فقد سبق الردّ عليه من كلام القرطبيّ ـ رحمه الله ـ، ويضاف إليه أنّ الموقوف إذا صحّ عن الصحابة، ولا مجال فيه للاجتهاد، لا سيما في أمور الاعتقاد، فهو حجّة، وهو في حكم المرفوع. وأمّا الدليل الثاني فقد أجاب عنه البغويّ ـ رحمه الله ـ بقوله: " فإن قيل: كيف تلزم الحجّة علىٰ أحد لا يذكر الميثاق؟ قيل: قد أوضح الله الدلائل علىٰ وحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا، فمن أنكره كان معانداً ناقضاً للعهد ولزمته الحجّة، وبنسيانهم وعدم حفظهم لا يسقط الاحتجاج بعد إخبار المخبر الصادق صاحب المعجزة "(٢). ونقل القرطبيّ عن الطرطوشي ـ رحمه الله ـ أنّه قال: "إنّ هذا العهد يلزم البشر وإن كانوا لا يذكرونه في هذه الحياة، كما يلزم الطلاق من شُهد عليه به وقد نسيه "(٣). وعلىٰ كلا القولين الإشهاد حاصل بلا شكّ، وهو حجّة علىٰ جميع الخلق، سواء قلنا هو علىٰ الحقيقة كما جاءت بذلك الآثار، أم علىٰ سبيل التمثيل، والله تعالىٰ أعلم.

٣. الوقف عند قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧].

ذكر الجابريّ القولين المشهورين في الوقف عند قوله تعالىٰ (وما يعلم تأويله إلا الله) وهل الواو في قوله (والراسخون ..) للعطف أم للاستئناف. ثمّ قال: " نحن نميل إلىٰ الفهم الأوّل، لأنّ مفهوم الراسخين في العلم يقتضي أنّهم يعلمون ذلك،

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٣٤٧.
(٢) تفسير البغوي: ١/ ٢٩٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٢٧٥

وإلا فلمَ وصفوا بهذا الوصف..". إلىٰ أن قال: " أمّا القول بأنّ الراسخين في العلم لا يعلمون فهو قول متناقض"، ثمّ قرّر أمراً في غاية العجب لا يصدر من باحث متجرّد للحقّ فقال: "وإذا كان كثير من علماء الإسلام يذهبون هذا المذهب، فليس لقصور أفهامهم عن إدراك الفهم الذي قلنا به، بل لأنّ هذه المسألة كانت من المسائل التي اختلف حولها المعتزلة وأهل السنّة. لقد سبق المعتزلة وقالوا بأنّ الراسخين في العلم يعلمون، يعنون بذلك أصحابهم القائلين بمذهبهم، واستخلصوا من ذلك نتائج تؤيّد مذهبهم، ولمّا قام الأشعرية بالردّ عليهم اتّخذوا موقفاً مخالفاً فقالوا بعكس ما ذهبوا إليه، وهناك حالات كثيرة مماثلة! "(١). هكذا يرىٰ الجابريّ أنّ المسألة مسألة عناد وإصرار، وأنّ الذين خالفوا المعتزلة لم يخالفوهم بالأدلّة وإنّما لمجرّد المخالفة فقط لأنّهم سبقوهم إلىٰ القول به، وهذا هراء لا يصدر من باحث متجرّد. ثمّ إنّه سلك مسلك التدليس، فلم يشر إلىٰ أنّ أهل السنّة قد ذكروا القولين في الآية، ولم ينفرد بذلك أهل الاعتزال، فعامّة المفسّرين ذكروا القولين، وإن كان الأكثرون رجّحوا القول بالاستئناف، قال البغويّ رحمه الله: " اختلف العلماء في نظم هذه الآية، فقال قوم: الواو في قوله والراسخون واو العطف، يعني: أنّ تأويل المتشابه يعلمه الله ويعلمه الراسخون في العلم، وهم مع علمهم ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، وهذا قول مجاهد والربيع. وعلىٰ هذا يكون قوله "يقولون" حالاً معناه: والراسخون في العلم قائلين آمنّا به.. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول في هذه الآية : أنا من الراسخين في العلم، وروي عن مجاهد: أنا ممّن يعلم تأويله. وذهب الأكثرون إلىٰ أنّ الواو في قوله "والراسخون" واو الاستئناف، وتمّ الكلام عند قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهو قول أبيّ بن كعب وعائشة وعروة بن الزبير رضي الله عنهم، ورواية طاووس عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، وبه قال الحسن وأكثر التابعين، واختاره الكسائيّ والفرّاء والأخفش، وقالوا: لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله، ويجوز أن يكون للقرآن تأويل استأثر الله بعلمه لم يطلع عليه أحداً من خلقه،

(١) فهم القرآن: ٣/ ١٨٠.

كما استأثر بعلم الساعة، ووقت طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدجّال، ونزول عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ونحوها، والخلق متعبّدون في المتشابه بالإيمان به، وفي المحكم بالإيمان به والعمل، وممّا يصدِّق ذلك: قراءة عبد الله (إنْ تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به)، وفي حرف أُبيّ (يقول الراسخون في العلم آمنّا به. وقال عمر بن عبد العزيز: في هذه الآية انتهىٰ علم الراسخين في العلم بتأويل القرآن إلىٰ أن قالوا آمنّا به كلّ من عند ربّنا. وهذا قول أقيس في العربية وأشبه بظاهر الآية "[٢].

وبعض أهل العلم سلك مسلك التوفيق بين القولين بحسب معنىٰ التأويل[٣]، قال السعديّ رحمه الله مبيّنـًا ذلك: " للمفسرين في الوقوف علىٰ « الله » من قوله ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ قولان، جمهورهم يقفون عندها، وبعضهم يعطف عليها ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ وذلك كلّه محتمل، فإنّ التأويل إن أريد به علم حقيقة الشيء وكنهه، كان الصواب الوقوف علىٰ ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، لأنّ المتشابه الذي استأثر الله بعلم كنهه وحقيقته، نحو حقائق صفات الله وكيفيتها، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك، فهذه لا يعلمها إلا الله، ولا يجوز التعرّض للوقوف عليها، لأنّه تعرّض لما لا يمكن معرفته، كما سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ فقال السائل: كيف استوىٰ؟ فقال مالك: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. فهكذا يقال في سائر الصفات لمن سأل عن كيفيتها، أن يقال كما قال الإمام مالك، تلك الصفة معلومة، وكيفيتها مجهولة، والإيمان بها واجب، والسؤال عنها بدعة. وقد أخبرنا الله بها ولم يخبرنا بكيفيتها، فيجب علينا الوقوف علىٰ ما حدّ لنا، فأهل الزيغ يتّبعون هذه الأمور المشتبهات تعرّضـًا لما لا يعني، وتكلّفـًا لما لا سبيل لهم إلىٰ علمه، لأنّه لا يعلمها إلا الله، وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بها، ويكلون المعنىٰ إلىٰ الله، فيسلِّمون

(٢) تفسير البغوي: ٢/ ١٠، (باختصار).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير: ١/ ١، ١٢.

ويَسْلمون. وإن أريد بالتأويل: التفسير والكشف والإيضاح، كان الصواب عطف «الراسخون» علىٰ «الله»، فيكون الله قد أخبر أنّ تفسير المتشابه وردّه إلىٰ المحكم وإزالة ما فيه من الشبهة لا يعلمها إلا هو تعالىٰ، والراسخون في العلم يعلمون أيضـًا، فيؤمنون بها ويردّونها للمحكم ويقولون ﴿كُلٌّ﴾ من المحكم والمتشابه ﴿مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾، وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض، بل هو متّفق يصدق بعضه بعضـًا، ويشهد بعضه لبعض "[١].

وقول الجابري إنّ: " مفهوم الراسخين في العلم يقتضي أنّهم يعلمون ذلك، وإلا فلمَ وصفوا بهذا الوصف" يردّه السياق، فإنّ الله إنّما وصفهم بهذا الوصف في مقابل أهل الزيغ الذين يتّبعون المتشابه، ويَدَعون المحكم، فهو هنا وصف كمال لا وصف نقص كما توهّم الجابريّ. ولرسوخهم في العلم فإنّهم يردّون المتشابه الملتبس إلىٰ المحكم الواضح، فيزول التشابه والالتباس، بخلاف أهل الزيغ والضلال.



(١) تيسير الكريم الرحمن: ص ١٢٢.

المطلب الثالث
ردّ الاحتجاج بالأحاديث الصحيحة أو تأويلها تأويلاً غير سائغ

وهذه من علامات أهل الزيغ، فإنّ السنّة الصحيحة تفسّر القرآن وتوضّحه، ولذا صحّ عنه، صلّىٰ الله عليه وسلّم أنّه قال: ((**ألا إنّي أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل ينثني شبعاناً علىٰ أريكته يقول: عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلّوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه..**))[1]. والجابري كثيراً ما يسلك هذا المسلك لهوىٰ في نفسه، وقد بيّن منهجه في ذلك فقال: " ولا معنىٰ لطرح صحّة سندها [أي الأحاديث] أو عدم صحّته، فالمعوّل عليه هنا هو نصّ السورة وليس السند، فلا يجوز إخضاع نصّ السورة أو الآية وتطويعه ليقترب لما تقوله المرويّات، بل العكس هو الذي يجب أن يحصل، خصوصاً وهذا الاختلاف الكبير منفيّ عن القرآن بصريح قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾"[2]. هكذا يفترض الجابريّ وقوع اختلاف بين القرآن الكريم والأحاديث النبويّة، حتىٰ لو كانت صحيحة السند! وهذا افتراض لا وجود له إلا في فهم الجابريّ وأمثاله ممّن يطوّعون النصوص لأهوائهم ، لأنّ القرآن والسنّة الصحيحة كلاهما من عند الله، فلا يمكن أن يتعارضا. وعلىٰ هذا المنهج السقيم سار الجابريّ في ردّه للأحاديث الصحيحة بحجّة اختلافها المتوهم مع القرآن. ومن ذلك:

١. **عند قوله تعالىٰ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ①﴾ إلىٰ آخر السورة:**

قال الجابري: " يميل معظم المفسّرين إلىٰ اعتبار الرواية التي تقول إنّه لمّا خاطب الله تعالىٰ في سورة الشعراء رسوله الكريم قائلاً: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤] بادر إلىٰ الاستجابة فصعد الصفا ونادىٰ قومه، وخطب فيهم فأخبرهم بأنّه رسول الله، وعندما انتهىٰ قال له أبو لهب ـ وكان أشدّ خصوم الإسلام ـ :

---

(١) أخرجه أحمد في المسند: ٤/ ١٣٠، برقم: ١٧٢١٣، وصحّح إسناده شعيب الأرنؤوط، وينظر: كشف الخفاء للعجلوني: ٢/ ٤٢٣.

(٢) فهم القرآن: ٣/ ٢٦٣، ٢٦٤.

(تبّاً لك! ألهذا جمعتنا ؟) فنزلت سورة المسد في موضع الردّ عليه. أمّا نحن فنميل إلىٰ مضمون الروايات السابقة، بمعنىٰ أنّ هذه السورة هي من أوائل السور. أمّا سورة الشعراء التي تضمّ الآية السابقة ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾، فهي من السور الطوال التي نزلت في مرحلة متأخرة عن المرحلة التي نتحرّك داخلها.. ومن المحتمل جداً أن يكون النبيّ ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ قد قرأ سورة المسد ردّاً علىٰ ما قاله أبو لهب بعد أن كانت نزلت من قبل، وليس بمعنىٰ أنّها نزلت في تلك اللحظة، وإذا نحن أخذنا بعين الاعتبار قوله تعالىٰ في هذه السورة: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ رجحت الرواية الأولىٰ التي ورد فيها أنّ أبا لهب قد عيّر أتباع النبيّ ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ بكونهم من الفقراء "[1]. وكما قال الجابريّ فإنّ معظم المفسّرين ـ بل كلّهم ـ أخذوا بما في الصحيحين وغيرهما عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد النبيّ ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ علىٰ الصفا فجعل ينادي: ((**يا بني فهر، يا بني عديّ..**)) لبطون قريش، حتىٰ اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: ((**أرأيتكم لو أخبرتكم أنّ خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدّقيّ**)) قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك إلا صدقاً. قال": ((**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**)). فقال أبو لهب: تبّاً لك سائر اليوم! ألهذا جمعتنا؟. فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ ﴾ [2]. فهذه الرواية أصحّ ما ورد في الآية، أمّا قول الجابريّ: ومن المحتمل جداً أن يكون النبيّ ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ قد قرأ سورة المسد ردّاً علىٰ ما قاله أبو لهب بعد أن كانت نزلت من قبل..الخ، فهو بعيد جداً، كما يظهر جليّاً من سياق الرواية،

(١) فهم القرآن الحكيم: ١/ ٣٨، ٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾: ص١٠١٣، رقم: ٤٧٧٠، ومسلم في كتاب الإيمان، باب قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾: ص٦٦، رقم: ٢٠٨.

فإنّه قال: فنزلت ﴿تَبَّتۡ يَدَآ﴾ ، وهذا صريح في أنّها نزلت بعد هذه الحادثة. أمّا رواية تعيير أبي لهب لأتباع النبيّ التي استدلّ بها الجابري، فهذه الرواية لم تثبت، ولذا لم يذكرها أكثر المفسّرين، والعجب من الجابري كيف يترك ما في الصحيحين أو يؤوّله، ويحتجّ بما لم يثبت، وهذا كثير في تفسيره كما سيأتي.

والذي حمله علىٰ هذا التأويل، كون سورة المسد نزلت قبل سورة الشعراء، ولذا قال ابن عاشور: " وهذا الحديث يقتضي أنّ سورة الشعراء نزلت قبل سورة أبي لهب، مع أنّ سورة أبي لهب عُدّت السادسة في عداد السور، وسورة الشعراء عُدّت السابعة والأربعين ".

ثمّ أجاب ابن عاشور عن ذلك بقوله: " فالظاهر أنّ قوله ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ نزل قبل سورة الشعراء مفرداً، فقد جاء في بعض الروايات عن ابن عباس في صحيح مسلم: لما نزلت « وأنذر عشيرتك الأقربين ورهطك منهم المخلصين »[1]، وأنّ ذلك نُسِخ . فلعلّ الآية نزلت أوّل مرّة ثمّ نُسخت تلاوتها، ثمّ أعيد نزول بعضها في جملة سورة الشعراء "[2]. لكنّ هذا الجواب لم يرق للجابريّ، لأنّه ينكر النسخ في القرآن الكريم[3]، ولذا اضطرّ إلىٰ تأويل رواية الصحيحين.

٢. عند قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الضحىٰ: ١ – ٣].

قال الجابريّ: " يذكر المفسّرون والمؤلّفون في أسباب النزول روايات متعدّدة حول سبب نزول هذه السورة، أشهرها واحدة (متعدّدة الصيغ والمعنىٰ واحد) مفادها أنّ جبريل أبطأ عن النبيّ ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ ولم يأته بالوحي مدّة، فحزن لذلك، وأنّ امرأة (بعضهم يقول زوجته خديجة) قالت له تعليقاً علىٰ ذلك: ما أرىٰ

(١) ينظر التخريج السابق في صحيح مسلم.
(٢) التحرير والتنوير: ٢٠/ ٣٧٦.
(٣) ينظر رأيه في النسخ في القرآن الكريم: فهم القرآن الحكيم: ٣/ ٩٩.

صاحبك إلا قد قلاك. فحزن النبيّ ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ لذلك، فنزلت هذه السورة تسلية له. قد تكون تلك الرواية صحيحة لكونها رويت من جهات متعدّدة، وذكرها البخاريّ ومسلم؛ غير أنّ ربط سبب نزول هذه السورة بإبطاء جبريل عن النبيّ ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ لسبب من الأسباب لا يستقيم مع سياق آيات السورة، وقد شعر كثير من المفسّرين بذلك فتساءلوا عن وجه اتّصال قوله ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحىٰ: ٤] بما قبله (= وما قلىٰ)[٤]، فأدلوا بآراء لا تجيب عن السؤال بما ينسجم مع السياق ! ونحن نرىٰ في سياق هذه السورة ما يفيد نوعًا من العتاب موجّه للنبيّ ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ! أمّا سبب العتاب ـ كما يفهم من السياق ـ فقد يكون فعلاً [هكذا!] أنّ أحداً قال للنبيّ ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ: إنّ ربّك قد قلاك. بمعنىٰ أنّه أهمل شأنك ولم يرفع من درجتك أمام أعين قريش، سواء بمال أو جاه وما أشبه، وأنّ النبيّ ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ ربّما تأثّر بذلك، فجاء الردّ المناسب: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾. وفي نظرنا فليس المقصود هنا بـ(الآخرة) و (الأولىٰ) المعنىٰ الشرعيّ: الحياة الأخرىٰ بعد الدنيا، بل المقصود هو المعنىٰ اللغويّ، أعني: المرّة الأولىٰ في مرحلة الطفولة، والمرّة التالية في مرحلة النبوّة "[١]. فالجابريّ هنا ينفي علاقة إبطاء الوحي بنزول السورة ـ مع ثبوت ذلك في الصحيحين وغيرهما ـ بحجّة أنّ ذلك لا يستقيم مع السياق، وهو كثيراً ما يسلك هذا المسلك في تفسيره، انطلاقًا من منهجه العقليّ، الذي يقوم علىٰ تقديم العقل علىٰ النصوص ـ لا سيّما نصوص السنّة ـ في حال تعارضها مع العقل أو ما يسمّيه بـ (الفهم)، والحقيقة أنّ النصوص الصحيحة لا تتعارض مع العقل الصحيح والفهم الصحيح، وحيث وقع تعارض ـ في الظاهر ـ فهو دليل علىٰ فساد العقل والفهم، وهذا ما وقع فيه الجابريّ هنا، فهو قد

---

(٤) هكذا كتبها (= وما قلىٰ)، وهذه الطريقة يسلكها كثيراً في كتبه للتوضيح، وهي طريقة دخيلة علىٰ العربية، لا أعلم من أين أتىٰ بها! أمّا اللغة العربية فليست بحاجة إلىٰ مثل هذه الركاكة وإدخال علامات حسابية.

(١) فهم القرآن: ١/ ٥٥.

افترض ـ حسب فهمه وعقله ـ أنّ القول بإبطاء الوحي لا يستقيم مع قوله تعالىٰ ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ فنفىٰ أن يكون لذلك علاقة بالسورة، ومع أنّ رواية سبب النزول وإبطاء الوحي ثابتة في الصحيحين، فهو لم يقطع بصحّتها، بل جعل ذلك محلّ احتمال بقوله " قد تكون تلك الرواية صحيحة .." ! .. والمتأمّل في آيات هذه السورة وما ورد في سبب نزولها من الآثار الصحيحة لا يجد فيها ما ينفي مسألة إبطاء الوحي، بل العكس هو الصحيح، فإنّ قوله تعالىٰ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ فيه دلالة واضحة علىٰ صحّة رواية إبطاء الوحي، ولا يتعارض ذلك مع قوله : ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ ، فقد جرت عادة القرآن في المواقف العصيبة أن يربط قلوب المؤمنين بالآخرة، لما في ذلك من التسلية لهم، وحثّهم علىٰ الصبر واحتمال الأذىٰ من أعداء الدعوة.. ولهذا ذكر ابن الجوزيّ ـ رحمه الله ـ اتّفاق المفسّرين علىٰ أنّ هذه السورة نزلت بعد انقطاع الوحي مدّة، وإنّما الاختلاف في سبب الانقطاع[(٢)].

وأمّا المرّأة التي ورد ذكرها في سبب النزول، فقد قيل إنّها امرأة أبي لهب، وقيل خديجة ـ رضي الله عنها ـ، وكلّ ذلك مرويّ بإسناد صحيح، والجمع بينها أن يقال إنّ التعليق علىٰ إبطاء الوحي صدر من كلا المرأتين مع اختلاف في التعبير، فأمّا امرأة أبي لهب فإنّها قالت تهكّماً: إنّي لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث، فأنزل الله ـ عز وجلّ ـ: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾[(١)]. وأمّا خديجة ـ رضي الله عنها ـ فإنّها قالت إشفاقاً وحزناً: يا رسول

---

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: ص١٥٦١.

(١) أخرج هذه الرواية عن جندب بن سفيان: البخاريّ في صحيحه في كتاب التفسير، باب قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ : ص١٠٧٣، رقم: ٤٩٥٠، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبيّ ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ من أذىٰ المشركين والمنافقين: ص٤٧٠، رقم: ١٧٩٧. ولم يذكرا اسم المرأة، وإنّما ذُكر اسمها في رواية عند الحاكم في المستدرك: ٢/ ٥٧٣، رقم: ٣٩٤٥. وصحّح إسنادها ووافقه الذهبي.

الله، ما أرىٰ صاحبك إلا أبطأك، فنزلت: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾[٢]. وقد تنبّه الحافظ ابن كثير - رحمه الله - إلىٰ هذا الفرق بين الروايتين، فقال: " ولعلّ ذكر خديجة ليس محفوظًا، أو قالته علىٰ وجه التأسّف والحزن والله أعلم"[٣]. لكنّ العينيّ - رحمه الله - في شرحه علىٰ صحيح البخاري ذكر أنّ التصريح باسم خديجة مروي بإسناد صحيح[٤]. ولهذا قال: " الظاهر أنّ المرأة التي قالت (يا محمّد ما أرىٰ شيطانك إلا قد تركك) غير المرأة التي قالت (ما أرىٰ صاحبك إلا قد أبطأ عنك) لأنّ هذه قالت يا رسول الله، وتلك قالت يا محمّد. والتي قالت (شيطانك)، قالت تهكّما وشماتة. والتي قالت (صاحبك)، قالت تأسّفا وتوجّعًا "[٥]. وهذا هو المسلك الصحيح في الجمع بين ما اختلف من الروايات. أمّا تفسير (الآخرة والأولىٰ) بغير المعنىٰ المعروف، وهو (الدنيا والآخرة)، وأنّ المراد بهما: حاليه قبل نزول هذه الآيات وبعدها؛ فقد ذكره عدد من المفسّرين[٦]، لكن لم يرجّحه أحد منهم بل يذكرونه مع القول الأوّل علىٰ أنّ الآية تحتمله، إلا الشعراويّ في تفسيره، فقد اقتصر عليه، ولم يذكر القول الآخر[٧]، وليس هو بالقول القويّ، ولذا أعرض عن ذكره أئمّة التفسير كالطبريّ وابن كثير - رحمهما الله - وغيرهما، والقول الأوّل أظهر من وجوه:

أحدها: أنّ هذا يشبه قوله تعالىٰ في السورة التي قبلها : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ [الليل: ١٣]، ومعناها علىٰ قول جميع المفسّرين: الدنيا والآخرة. وقد ذكر

(٢) أخرج هذه الرواية عن جندب أيضًا: البخاري في كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ : ص١٠٧٤، رقم: ٤٩٥١ دون التصريح باسم خديجة.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٦٧٤.

(٤) ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري: ٧/ ١٧٢.

(٥) المصدر السابق.

(٦) ينظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة: ٥/ ٤٩٣، والبحر المحيط أبي حيّان: واللباب في علوم الكتاب لابن عادل: ٢٠/ ٣٨٧، وروح المعاني للآلوسي: ٣٠/ ١٥٨، وغيرها.

(٧) تفسير الشعرواي: ص٢٢٩٨.

السيوطيّ ـ رحمه الله ـ أنّ سورة الضحىٰ متّصلة بسورة الليل من وجهين، فإنّ فيها ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ وفي الضحىٰ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾، وفي الليل: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ ، وفي الضحىٰ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾ [1].

الثاني: أنّ لفظ الآخرة في اصطلاح القرآن غلب علىٰ الحياة الآخرة وعلىٰ الدار الآخرة، كما غلب لفظ الأولىٰ علىٰ حياة الناس التي قبل انخرام هذا العالم. قاله ابن عاشور ـ رحمه الله ـ[2].

الثالث: أنّ القول الثاني أعرض عنه أئمّة المفسّرين كما سبق.

الرابع: ما أخرجه الطبراني عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ: ((**عُرض علي ما هو مفتوح لأمتي بعدي فسرّني**))، فأنزل الله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ إلىٰ قوله ﴿فَتَرْضَىٰ﴾ ، أعطاه الله في الجنّة ألف قصر من لؤلؤ، ترابها المسك، في كلّ قصر ما ينبغي له[3].

ومع هذا يمكن حمل الآية علىٰ المعنيين إذ لا تعارض بينهما، أمّا القول بأنّ المراد بالأولىٰ: مرحلة الطفولة، والآخرة: مرحلة النبوّة! وهو القول الذي رجّحه الجابريّ، فهو من شذوذاته، المنكرة، فلم يقل به أحد من المفسّرين، والله تعالىٰ أعلم.

٣. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ **[مريم: ٦٤]**:

قال الجابريّ عند تفسيره لهذه الآية: " يربط المفسّرون بين هذه الآية وبين انقطاع الوحي عن النبيّ لبعض الوقت بعد سؤال قريش له عن أهل الكهف وذي القرنين والروح.. إلخ. وفي رأينا أنّ هذه الآية مرتبطة بالسياق السابق، فبعد أن عدّدت السورة الرسل الذين خصّهم الله برسالاته قال (جبريل): وما نتنزّل إلا بأمر

(١) ينظر: أسرار ترتيب القرآن: ص ١٥٢.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٩٦.

(٣) أخرجه الطبرانيّ في الأوسط: ١/ ١٧٩، رقم: ٥٧٢. قال السيوطي في لباب النقول (ص٢٣٠): " إسناده حسن ". وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٧٤): " وهذا إسناد صحيح إلىٰ ابن عباس، ومثل هذا ما يقال إلا عن توقيف ".

ربّك: ما نأتي بالوحي إلا بأمر الله، وبأمره جئناك أنت من دون غيرك من رجال قريش"(١).

هذا مثال آخر يؤكّد تجاهل الجابريّ للسنّة المطهّرة، وترك الاحتجاج بها، ففي الصحيح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ لجبريل: ((**ما يمنعك أن تزورنا أكثر ممّا تزورنا**)) فنزلت: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾ (٢). والجابريّ أغفل رواية الصحيح وذكر غيرها ممّا ليس في الصحيح، ثمّ قرّر أن يردّ هذه الروايات، ويرجّح أنّ الآية نزلت ابتداءً محتجّاً بالسياق!، ولو تأمّل السياق جيّداً لوجد أنّ قوله: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ ﴾ لا يصدر ابتداءً، وإنّما يأتي جواباً لسؤال، كيف وقد جاء تأكيد ذلك في رواية صحيحة ثابتة !.

❊ ❊ ❊

(١) فهم القرآن: ١/ ٢٩١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله: « وما نتنزل إلا بأمر ربّك ..»: ص٩٩٧، رقم: ٤٧٣١.

المطلب الرابع
الاعتراض على الشرع فيما يراه متعارضاً مع قيم الحضارة الغربية المعاصرة

ومن ذلك:

١. اعتراضه علىٰ تسمية المهر بالأجر:

قال في معرض تعليقه علىٰ سورة الممتحنة: " وما تطرحه هذه السورة بصدد (المهر) يعطينا فكرة واضحة عن أهمية المهر أو الصداق في الحياة الزوجية في القبائل العربية في المجالين الاجتماعي والاقتصادي، وقد تحدّث القرآن عنه في كثير من الأحيان كما في هذه السورة باسم (الأجر) كأنّ الزواج بامرأة نوع من المعاملة التجارية. وكانت قيمة المرأة ـ وما تزال ـ تقاس بمقدار مهرها الذي كان يراد منه أن يعكس مكانة أسرتها في المجتمع. ولا بدّ من الإشارة كذلك إلىٰ أنّ المهر كان ينظر إليه بمقياس التبادل الاقتصادي بين القبائل إذ كان يتمّ بالعملة كما يتمّ بالإبل والمتاع.."(٣).

هذا فهمه للفظ الأجر!، ولست أدري هل هذا اعتراض منه علىٰ هذه التسمية ـ كما يظهر ـ أم أنّه أراد بيان الواقع فلم يحسن التعبير! علماً بأنّ لفظ المهر لم يرد في القرآن الكريم، وورد لفظ (الصداق) مرّة واحدة فقط، في قوله تعالىٰ: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ ﴾ [النساء: ٤]، وفي السورة نفسها ورد لفظ (الأجر) أكثر من مرّة، وكذا في سائر القرآن لم يرد سوىٰ لفظ (الأجر) كما في سورة الممتحنة والنساء والمائدة والأحزاب، وهذه الثلاث الأخيرة مدنية، فلا علاقة لذلك بالعادات الجاهلية، والمصالح الاجتماعية والاقتصادية، وإنّما هو تعبير القرآن ومعهوده في مثل هذا، وإنّما جاء التعبير بالصداق في قوله ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ ﴾ لأنّ الخطاب ليس مقتصراً علىٰ الأزواج فقط فيما يظهر، وإنّما يدخل فيه الأولياء، والله تعالىٰ أعلم.

(٣) فهم القرآن: ٣/ ٢٠٨.

٢. اعتراضه علىٰ ملك اليمين!

نقل الجابريّ عند قوله تعالىٰ: ﴿فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ [النساء: ٣] قول الطبريّ: " فإن خفتم الجور في الواحدة أيضاً فلا تنكحوها، ولكن عليكم بما ملكت أيمانكم؟ ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ : فإنّكم أحرىٰ أن لا تجوروا عليهنّ، لأنّهنّ أملاككم وأموالكم، ولا يلزمكم لهنّ من الحقوق كالذي يلزمكم للحرائر، فيكون ذلك أقرب إلىٰ السلامة من الإثم والجور"[١]. ثمّ قال: " قلت: ولكن يبقىٰ تحديد معنىٰ الجور ونوعه؛ هل الجور في المال فقط، أو في المعاملة عامّة، أو في حقّ الزوجية من حبّ وجماع، أو في عدم الزنىٰ عليهنّ، الخ. ثمّ هل الجور علىٰ الإماء ليس جوراً، حتىٰ ولو سكتنا عن وضعيتهم كمسبيّات وأسيرات! أليس للأسير في الإسلام حقوق، الخ؟ "[٢]. فليُتأمل قوله: " **حتىٰ لو سكتنا عن وضعيتهم كمسبيّات وأسيرات**"، يكشف عمّا في نفسه من الشك والاعتراض علىٰ شرع الله وحكمه، مع ما في كلامه من الأخطاء وقصور الفهم والإخلال بالأمانة العلمية، من ذلك: تصرّفه في نصّ الإمام الطبري دون إشارة إلىٰ ذلك، حيث قام باختصاره بشكل مخلّ، وأضاف إليه علامة استفهام تشعر بالاستنكار، وهذا نوع من الدسّ الخفيّ!. ومن ذلك: سوء فهمه للآية، حيث ظنّ أنّ ملك اليمين، في حكم الزوجة. وكذلك خلطه بين ملك اليمين والأسيرات!.

٣. إنكار حدّ الردّة.

قال الجابريّ عند قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧]: " واضح أنّ هذه الآية لا تنصّ علىٰ أيّة عقوبة دنيويّة لمن ارتدّوا عن الإسلام، وإنّما تؤكّد أنّ ما قاموا به من أعمال صالحة حين إسلامهم ستصبح باطلة

(١) جامع البيان: ٧: ٥٤٠. ونصّ الطبريّ أخصر من ذلك!
(٢) فهم القرآن: ٣/ ٢١١.

بعد كفرهم، ولا يكون عليها ثواب في الدنيا ولا في الآخرة، وأنّ مصيرهم جهنّم يوم القيامة "[1]. هذا ما قرّره الجابريّ هنا، من نفي أيّ عقوبة دنيويّة ـ ويقصد حدّ الردّة ـ لكنّه لم يصرّح بذلك، متجاهلاً الأحاديث الصحيحة الواردة في ذلك. وفي موضع آخر في غير كتابه هذا تحدّث صراحة عن حكم المرتدّ، وخلص إلىٰ التفريق بين المرتدّ الذي يغيّر دينه كشخص ليست له أيّة دوافع أخرىٰ غير اقتناعه الشخصي! وبين المرتدّ بدافع خارجي كما يقول، كالمرتدين الذين أعلنوا التمرّد علىٰ الدولة، وحاربهم أبو بكر رضي الله عنه! يقول: " فالمرتدّ بهذا المعنىٰ هو من خرج علىٰ الدولة، **إسلاميّة كانت أو غير إسلامية!**، محاربـًا أو متآمراً أو جاسوسـًا للعدوّ". هذا تفسيره للمرتدّ الذي يقام عليه الحدّ في نظره، فلا علاقة له بكون الدولة إسلامية أو غير إسلامية!، ثمّ يقرّر جازمـًا بأنّ هذا هو حكم الفقه الإسلاميّ: أنّ الحكم علىٰ المرتدّ بهذا المعنىٰ ليس حكمـًا ضدّ حريّة الاعتقاد، بل ضدّ خيانة الأمّة، وضدّ التواطؤ مع العدوّ أو التحوّل إلىٰ لصّ أو عدوّ محارب"[2]. وهذا الذي ذكره في تعريف المرتدّ لا علاقة له بالردّة، فالمحارب والمتآمر والجاسوس قد يكون منتسبـًا للإسلام، كما هو حال المنافقين. والمرتدّ في الشريعة قد لا يكون محاربـًا ولا متآمراً ولا جاسوسـًا، فهذا التفريق الذي ذكره الجابريّ لا دليل عليه، بل هو مضادّ للأدلة الشرعية التي أثبتت حدّ الردّة للأفراد، ومنها ما ثبت في الصحيح عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ رسول الله، صلّىٰ الله عليه وسلّم قال: ((**من بدّل دينه فاقتلوه**))[3]، وفي الصحيح أيضـًا، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنّ رسول الله، صلّىٰ الله عليه وسلّم قال: « **لا يحلّ دم امرئ يشهد أن لا إله إلا الله، وأنّي رسول الله، إلا في إحدىٰ ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه..** » الحديث. وهذا عامّ في كلّ مرتدّ، فرداً كان أو جماعة، مهما كان الدافع، وهذا ما فهمه الصحابة رضي الله عنهم

(١) فهم القرآن: ٣/ ٧٢.

(٢) من مقال له بعنوان: (حكم المرتدّ في الإسلام) نشر في موقعه علىٰ النت : منبر الدكتور محمّد عابد الجابري.

(٣) أخرجه البخاريّ في كتاب الجهاد والسير، باب لا يعذّب بعذاب الله، ٧/ ٥٦٨، برقم: ٣٠١٦.

وعملوا به[(١)]، ولذا قال الشافعي: "ولم يختلف المسلمون أنّه لا يحلّ أن يُفادىٰ بمرتدّ بعد إيمانه، ولا يُمَنّ عليه، ولا يُؤخذ منه فدية بحال، حتىٰ يُسلِم أو يُقتل"[(٢)]. هذا من حيث الأدلّة الشرعية؛ أمّا من حيث النظر فإنّ المرتدّ الفرد حين يترك، ولا يقام عليه الحدّ، باسم حرية التعبير أو غيرها!، فإنّ ذلك سيؤدّي إلىٰ كثرة المرتدّين المجاهرين، وبهذا قد تتكوّن جماعة معارضة من المرتدّين تكون نواة للتمردّ علىٰ شاكلة المرتدّين الذين خرجوا في زمن الصدّيق رضي الله عنه، لا سيما وأنّ العدوّ الخارجي سيجد فيهم بغيته في تقويض الدولة الإسلامية أو إضعافها، فوجب حسم الأمر من أساسه، فإذا علموا أنّ هناك حداً سيستأصلهم لم يجرؤوا علىٰ إظهار كفرهم وردّتهم، وكان ذلك حماية للمجتمع المسلم من شرّهم. ثمّ إنّ الدخول في الإسلام والخروج منه أسلوب من أساليب أعدائه، لتشجيع الناس علىٰ الكفر، كما أخبر الله عن طائفة من أهل الكتاب أنّهم قالوا: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [آل عمران:٧٢]، فوجب إغلاق هذا الباب بإحكام.



(١) ذكر ابن أبي شيبة رحمه الله في مصنّفه تحت باب: (ما قالوا في الرجل يُسلم ثم يرتدّ، ما يُصنع به :٧/ ٥٩٤) آثاراً كثيرة عن أعداد من الصحابة والتابعين منهم: عمر وعليّ وابن مسعود ومعاذ وعطاء وعمر بن عبد العزيز، حكموا بقتل أفراد من المرتدّين.

(٢) معرفة السنن والآثار للبيهقي ١٣/ ٤٠٧.

المبحث الثاني: القصور العلمي، والإخلال بالأمانة العلمية

المتتبّع لكتابات الجابريّ وتخرّصاته يلحظ فيها القصور العلمي الواضح، وعدم الالتزام بالأمانة العلميّة، التي تقتضيها الضرورة البحثية العلميّة المتجرّدة، وسرّ ذلك أنّ الرجل ليس مفسّراً ولا من أهل الاختصاص في العلوم الإسلامية، ولم يكن قصده أن يكتب تفسيراً علمياً للقرآن، وإنّما هدفه ـ كما يظهر ـ الترويج لأفكاره حسب منهجه المذكور سابقًا، ولذا لا يستغرب منه القصور العلمي، والإخلال بالأمانة العلمية من أجل تمرير أفكاره المشبوهة، وبيان ذلك في المطالب التالية:

المطلب الأوّل: تجاهل السنّة الصحيحة، أو الجهل بها

إنّ من الأخطاء الفادحة التي يقع فيها الجابريّ: جهله بالسنّة النبويّة، أو تجاهلها، فكثيراً ما يجهل ـ أو يتجاهل ـ بعض الأحاديث الصحيحة الشارحة والموضّحة لبعض آيات القرآن، فهو يرىٰ أنّ الفهم ـ كما يقول ـ: " يجب الاعتماد فيه علىٰ السياق ومبدأ (القرآن يشرح بعضه بعضـًا)، ومراعاة معهود العرب علىٰ العموم"[1]، والسياق عنده أن يعمل عقله المجرّد بل المشبّع بالهوىٰ، في فهم الآيات دون اعتبار للنصوص الشارحة والموضّحة من السنّة الصحيحة والآثار المرويّة عن السلف، مع الأخذ ببعضها أحيانـًا إذا كانت موافقة لفهمه وهواه، وأحيانـًا يخلط بين الصحيح وغيره من الضعيف والواهي والموضوع!..

ومن ذلك:

١. **عند قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]:**

قال الجابريّ: " اعتمد معظم المفسّرين علىٰ الإسرائيليات في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فقالوا إنّ الله خلق حوّاء من ضلع آدم، وهذا مذكور في التوراة، ولكن ليس في القرآن ما يدلّ علىٰ أنّ الله خلق حوّاء من ضلع آدم. وما يُفهم من الآيات التي تعرّضت لهذا الموضوع هو أنّ الله خلق آدم من طين "[2].

---

(١) فهم القرآن: ١/ ٣٤١.

(٢) فهم القرآن: ١/ ٢٤٠.

وقال في موضع آخر: " للمفسّرين أقوال في هذا الموضوع ترجع كلّها إلىٰ ما ورد في التوراة من أنّ الله خلق حوّاء من ضلع آدم.." إلىٰ أن قال: " أمّا قوله تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فلا شيء فيه يفهم منه أنّه خلقها من ضلع آدم. والأقرب إلىٰ الفهم الصحيح للقرآن (الفهم الذي يعتمد مبدأ: القرآن يفسّر بعضه بعضاً) هو أن نقول: المقصود بالنفس هنا هو النوع، كما فهمنا قوله تعالىٰ في سورة النحل: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [النحل: ٧٢] أي: جعل لكم من نوعكم الإنسانيّ أزواجاً، وبالتالي فمعنىٰ: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي خلق زوجها من نفس نوعها.. " إلىٰ أن قال: " فكما خلق آدم من تراب، فواجب أن تخلق حوّاء من تراب، لأنّهما نوع واحد ﴿نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ "[٣]. هذا ما ذكره حول معنىٰ هذه الآية، وهوّ هنا قد خلط بين الأحاديث الصحيحة، والإسرائيليات التي لا خطام لها ولا زمام، كما خلط بين إيراد بعض المفسّرين لبعض الروايات الإسرائيلية عند قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ ﴾، وما روي في ذلك عن آدم وحواء من طاعتهما الشيطان في تسمية ولدهما، وبين قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ، وأنّ حوّاء خلقت من ضلع آدم. فالأوّل أنكره كثير من المفسّرين وأهل التحقيق، كالحافظ ابن كثير، وابن حزم، والفخر الرازي، وابن عثيمين ـ رحمهم الله ـ وغيرهم. وأمّا الثاني فقد جاء فيه حديث صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ: ((**استوصوا بالنساء فإنّ المرأة خلقت من ضلع، وإنّ أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء**))[١]. قال الإمام النوويّ ـ رحمه الله ـ: " وفيه دليل لما يقوله الفقهاء أو بعضهم أنّ حوّاء خلقت من ضلع آدم، قال الله تعالىٰ: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء: ١]، وبيّن

(٣) فهم القرآن: ٣/ ٢١٠.

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته: ص٦٧٨، رقم: ٣٣٣١، ومسلم في كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء: ص ٣٦٦، رقم: ١٤٦٨.

النبيّ ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ أنها خلقت من ضلع "[٢]. وقال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: " قيل فيه إشارة إلىٰ أنّ حوّاء خلقت من ضلع آدم الأيسر، وقيل من ضلعه القصير، أخرجه ابن إسحاق، وزاد: اليسرىٰ من قبل أن يدخل الجنة، وجعل مكانه لحم. ومعنىٰ خلقت أي: أخرجت كما تخرج النخلة من النواة.. وفائدة هذه المقدّمة أنّ المرأة خلقت من ضلع أعوج فلا ينكر اعوجاجها. أو الإشارة إلىٰ أنّها لا تقبل التقويم، كما أنّ الضلع لا يقبله"[٣]. قلت: ولعلّ المراد بالاعوجاج: غلبة العاطفة عليها لكونها خُلقت لتكون زوجة وأمّـًا، ومن المعلوم أنّ العاطفة قد تطغىٰ علىٰ العقل في أحيان كثيرة، والله أعلم.

وما أشار إليه الجابريّ من أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضـًا، هو حجّة عليه ها هنا، فقد جاء في موضع آخر قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾ [النساء: ١]، فهذه الآية مفسّرة للآية التي معنا، وهي لا تحتمل غير آدم وحوّاء، وقوله ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ واضح في أنّ حوّاء خلقت من آدم عليه السلام، وهذا قول عامّة المفسّرين، ولم أر من اختار غيره. وإنكار الجابريّ لمسألة خلق حوّاء من ضلع آدم، وما ورد في الحديث من اعوجاجها، جار علىٰ مذهبه في تفسير القرآن تفسيراً (عصريـًا) يتوافق مع مبادئ الحضارة الغربية التي تعلي من شأن الأنثىٰ وتغالي في ذلك، وسيأتي لذلك أمثلة أخرىٰ بإذن الله تعالىٰ.

٢. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ﴾ **[النمل: ٨٢]**:

قد سبق أنّ الجابري أنكر خروج الدابّة في آخر الزمان، وزعم أنّ ذلك ليس علىٰ حقيقته وإنّما هو علىٰ سبيل الاستهزاء بالكافرين يوم القيامة،! وأنّ ذلك ممّا انتقل إلىٰ المفسّرين من الموروث القديم وأساطير الأوّلين! وهذا في غاية العجب، فهو قد جهل أو تجاهل السنّة الصحيحة الواردة في إثبات الدابّة، وأنّها من أوائل علامات الساعة الكبرىٰ، ووصف ذلك بكلّ جهل وجرأة بأنّه " **من الموروث القديم**

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجّاج: ١٠/ ٥٧.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ٦/ ٣٦٨، (باختصار).

وأساطير الأوّلين "!! فعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ قال حفظت من رسول الله ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ حديثاً لم أنسه بعدُ؛ سمعت رسول الله ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ يقول: ((**إنّ أوّل الآيات خروجًا: طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابّة علىٰ الناس ضحىٰ. وأيّهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرىٰ علىٰ أثرها قريبًا**))[1]، وعن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: كنّا قعوداً نتحدّث في ظلّ غرفة لرسول الله ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ فذكرنا الساعة، فارتفعت أصواتنا، فقال رسول الله ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ: ((**لن تكون أو لن تقوم الساعة حتّىٰ يكون قبلها عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابّة، وخروج يأجوج ومأجوج، والدجّال، وعيسىٰ ابن مريم، والدخان، وثلاث خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب. وآخر ذلك تخرج نار من اليمن من قعر عدن تسوق الناس إلىٰ المحشر**))[2]. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ: ((**ثلاث إذا خرجن لم ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، و خروج الدجّال، وخروج الدابّة**))[3]. فهذه الأحاديث الصحيحة تؤكّد خروج الدابّة في آخر الزمان، وهي مبيّنة للآية الكريمة، والسنّة تبيّن القرآن وتوضّحه، لكنّ الجابريّ تجاهل هذه الأحاديث مسفّهًا من أخذ بها، ومدّعيًا أنّ الأخذ بها "لا يتّسق مع أسلوب القرآن في الدعوة والإقناع"!.

٣. **قوله تعالىٰ:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ **[النمل: ٨٥]**:

قال الجابريّ عند هذه الآية: "اختلفت تأويلات المفسّرين لهذه الآية، فمنهم من فسّر (المعاد) هنا بوعد بالرجوع إلىٰ مكّة، ومنهم من قال إنّه (الجنّة)..الخ، يدورون مع المعنىٰ اللغويّ للكلمة. أمّا نحن فنرىٰ أنّ المعنىٰ الذي يفرضه السياق هو (المعاد) بمعنىٰ يوم الحساب والجزاء الشيء الذي يعني أنّ النبيّ ـ صلّىٰ الله عليه

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجّال.. : ص٧٤٤، رقم: ٢٩٤١.
(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم، باب أمارات الساعة: ٢/ ٥١٧، رقم: ٤٣١١. وصحّح إسناده الألبانيّ كما في تخريجه علىٰ مشكاة المصابيح: ٣/ ١٨٦.
(٣) أخرجه أبو يعلىٰ في مسند: ١١/ ٣٣، رقم: ٦١٧٢. وصحّح إسناده حسين سليم الأسد.

وسلّم ـ سيجازىٰ يوم القيامة كبقيّة البشر ، وأنّه واقع هو الآخر كالبشر جميعـًا تحت طائلـة الوعـد والوعيـد. والآيـات التاليـة صـريحة في هـذا المعنـىٰ: قـول تعـالىٰ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ وقولـه: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وهـذا مصـداقـًا لقولـه تعـالىٰ في آيـات أخـرىٰ مثـل قولـه: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥]"(١) ا.هـ.

فالجابريّ هنا يقرّر أنّ النبيّ ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ سيجازىٰ يوم القيامة كبقيّة البشر ، وأنّه واقع هـو الآخـر كالبشـر جميعـًا تحت طائلة الوعد والوعيد!.. وهـذا التقرير في غاية العجب، وفيه دليل علىٰ جهله بنصوص الكتاب والسنّة علىٰ وجه العموم، ونظرته القاصرة للنصوص، فنبيّنا ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ قد غُفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر بنصّ القرآن: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾ [الشـرح: ٢، ٣]، ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾ [الفتح: ٢]. وهذا ما فهمه الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وأقرّهم عليه النبيّ ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ فعن المغيرة بن شعبة ـ قال: قام النبيّ ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ حتىٰ تورّمت قدماه، فقيل له: غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر! قال: ((**أفلا أكون عبداً شكوراً**))(٢). وأمّا الآيات التي استدلّ بها الجابريّ علىٰ ما ذهب إليه فلا دليل فيها إمّا لكونها آيات عامّة الغرض منها التوجيه والتسديد للنبيّ ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ، وأتباعه من بعده، وإمّا لكونها نزلت في وقت مبكّر قبل إبلاغ النبيّ ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ بغفران ذنوبه ما تقدّم منها وما تأخّر. والله تعالىٰ أعلم.

* * *

---

(١) فهم القرآن: ١/ ٣٣٨، ٣٣٩.

(٢) أخرجه البخاريّ في كتاب التفسير، باب قوله: « ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر »: ص١٠٣٦، رقم: ٤٨٣٦، ومسلم في كتاب صفة القيامة، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة: ص ٧١٦، رقم: ٢٨١٩.

المطلب الثاني: التدليس والتلبيس بغرض الدسّ والانتقاص

وهذا كثير جداً في كتاباته وتخرّصاته، وهو يهدف ـ فيما يظهر ـ إلىٰ الدسّ لترويج أفكاره كما هي طريقة أهل الاعتزال وغيرهم، وإلىٰ انتقاص المفسّرين وإظهارهم بصورة ضعيفة مهزوزة عند المتلقّي، وأنّهم غير "عقلانيين" كما يريد أن يظهر هو نفسه، وفيما يلي بعض الشواهد علىٰ ذلك ـ وهو غيض من فيض ـ:

١. **قوله تعالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدّثر: ٤]:**

قال الجابريّ في تفسيره: " ذهب المفسّرون في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ مذاهب شتّىٰ، وجلّهم مع القول بأنّ المقصود: الطهارة من المعاصي، أي: لا تلبس ثيابك علىٰ معصية، ثمّ اختلفوا في المعصية..أمّا نحن فنرىٰ أنّ المعنىٰ الذي يعطيه السياق هو غسل الثياب التي علىٰ جسمه كما شرحنا في النصّ، باعتبار أنّه جاء إلىٰ بيته مضطرباً من التجربة التي كانت له في الجبال المحيطة بمكّة بسبب انقطاع الوحي"(١). وقال عند شرحه للنصّ في متن كتابه: "﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ التطهّر " ممّا قد يكون لصق بها من تراب أو غبار عندما كان ينتقل بين الجبال ".

وهذا الذي ذكره الجابري من أنّ جلّ المفسّرين ذهبوا إلىٰ أنّ المقصود: الطهارة من المعاصي، فيه تدليس وقصور علمي واضح، فإنّ جلّ المفسّرين ذكروا القولين في معنىٰ الآية (الطهارة الحسّيّة والمعنوية)، مع اختلاف في التفاصيل، وقد استظهر بعضهم الأوّل كابن جرير ـ رحمه الله ـ(٢)، وبعضهم رأىٰ أنّ الآية تحتمل القولين كابن كثير ـ رحمه الله ـ(٣).

٢. **قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ [البلد: ١١]:**

قال الجابريّ: " كثير من المفسّرين قالوا إنّ المقصود بـ (العقبة) هي القيامة، وهي لم تقم بعد؟ إنّ العقبة المعنيّة لا تحتاج إلىٰ تأويل إذ هي مشروحة بقوله: فكّ

---

(١) فهم القرآن الحكيم: ص ١/ ٣٢.

(٢) ينظر: جامع البيان: ١٢/ ٢٨٩.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٦٦.

رقبة.. الخ، أي الكفّارة "[1]. وهذا تدليس وضعف توثيق، فأكثر المفسّرين ذكروا هذين القولين اللذين ذكرهما الجابريّ في معنىٰ الآية (علىٰ اختلاف وتفصيل في الأوّل)، ولم يقتصروا علىٰ القول الذي أنكره الجابريّ، وبعضهم لم يذكر إلا الثاني فقط[2]، وهو الذي اختاره الجابريّ، والذين اقتصروا علىٰ الأوّل هم قلّة من المفسّرين، منهم الإمام الصنعاني[3] والثعلبيّ[4]، وهو مرويّ عن بعض الصحابة كابن عمر وابن عبّاس -رضي الله عنهم -وبعض التابعين كالحسن وقتادة وغيرهما[5]. وبعض أهل التفسير أنكر هذا القول وردّه كالواحديّ والرازي[6]..

قال الواحديّ ـ رحمه الله ـ بعد أن ذكر هذا القول: " وهذا فيه نظر، لأنّ من المعلوم أنّ هذا الإنسان وغيره لم يقتحموا عقبة جهنّم، ولا جاوزوها، فحمل الآية عليه يكون إيضاحاً للواضحات"، ثمّ قال: " ويدلّ عليه أنّه لما قال سبحانه ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴾ فسّرها جلّ شأنه بالرقبة والإطعام"[7]. وقد حاول الألوسيّ ـ رحمه الله ـ التوفيق بين القولين، رادّاً علىٰ ما ذكره الواحديّ، فقال بعد أن ذكر الأقوال المرويّة في معنىٰ العقبة وأنّها في الآخرة: " وهذه الأقوال ـ إن صحّت ـ يتعيّن عليها أن يراد بالاقتحام: المرور والجواز بسرعة، وأن يقدّر المضاف، أي: وما أدراك ما اقتحام العقبة، فكّ.. الخ وجعل الفكّ وما عطف عليه نفس الاقتحام علىٰ سبيل المبالغة في سببيّته له حتىٰ كأنّه نفسه، ومآل المعنىٰ: فلا فعل ما ينجو به ويجوز بسببه العقبة الكؤود يوم القيامة. وبهذا يندفع ما قاله الواحديّ بعد نقله تفسيرها بـ (جبل زلال في جهنم) وبـ (الصراط) ونحو ذلك". ثمّ استدرك قائلاً: " نعم، أنا لا أقول

(١) فهم القرآن: ١/ ١٦٧.
(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٦٦، والكشّاف: ٤/ ٧٥٩، ومحاسن التأويل: ص ٤٥٩٨.
(٣) تفسير الصنعاني: ٣/ ٣٧٥.
(٤) الكشف والبيان: ١٠/ ٢١٠.
(٥) ينظر: جامع البيان: ١٢/ ٥٩٢، وتفسير ابن أبي حاتم: ١٢/ ٤١٠.
(٦) ينظر: مفاتيح الغيب: ٣١/ ١٦٧.
(٧) اللباب في علوم الكتاب: ٢٠/ ٣٤٧.

بشيء من ذلك حتىٰ تصحّ فيه تفسيراً للآية رواية مرفوعة"[٨]. ولا يخفىٰ ما في هذا التوفيق الذي ذكره الألوسيّ من الضعف والتكلّف، لأنّ الأصل عدم التقدير، هذا مع تخلّف شرطه وهو وجود رواية صحيحة مرفوعة، والله أعلم.

٣. **قوله تعالىٰ:** ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴾ **[الفلق: ٤]:**

سبق أنّ الجابريّ عند تعليقه علىٰ هذه الآية، نقل كلام القرطبيّ ـ رحمه الله ـ عن السحر، وقام ببتره بطريقة ماكرة توحي بتناقض القرطبيّ ـ رحمه الله ـ وختم تعليقه الماكر بقوله: " وبعد، فكيف نفهم هذا الاختلاف في وجهة نظر القرطبيّ: تارة ينفي وجود السحر، ويورد مواقف فقهية بوجوب قتل الساحر، وتارة يقول بوجود السحر ويهاجم نفاته ومنكريه!" [١]. ومن يقرأ كلام القرطبيّ بتمامه بتجرّد وإنصاف لا يرىٰ فيه أيّ تناقض، بل يرىٰ فيه كلاماً علميّاً جامعاً لما يتعلّق بهذه المسألة وما فيها من اتّفاق واختلاف، ويكتشف تلبيس الجابريّ وتدليسه علىٰ أهل العلم.

* * *

(٨) روح المعاني: ٣٠/ ١٣٧. بتصرّف يسير.

(١) فهم القرآن: ١/ ٧٩. وينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبيّ: ٢/ ٤١. وبإمكان الباحث المتجرّد أن يقارن بين النصّين الأصليّ والمنقول، ليكتشف البتر المذكور.

المطلب الثالث: جهله باللغة العربية

وهذا كثير، ومن ذلك:

١. **عند قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩]:**

قال الجابريّ: " ذهب جلّ المفسّرين إن لم يكن كلّهم إلىٰ أنّ المقصود بـ ﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾ هنا: (ما أُسرّ في القلوب من العقائد والنيّات وغيرها، وما أُخفي من الأعمال وبلاؤها). وواضح أنّ هذا لا يستقيم مع السياق، فالكلام هنا عن القوّة البدنية التي افتخر بها الشخص المذكور في التقديم. يزكّي ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾. ولذلك فنحن نرجّح أنّ معنىٰ السرائر هنا هو ما ذكره صاحب القاموس المحيط، قال: (السريرج : أسرارٌ وسَرائِرُ والجِماعُ والذَّكَرُ والنِّكاحُ والإفصاح به والزِنىٰ وفَرْجُ المرأة ومُسْتَهَلُّ الشهرِ أو آخرُه أو وسَطُه والأصلُ والأرضُ الكريمةُ وجَوْفُ كلِّ شيءٍ ولُبُّه ومَحْضُ النَّسَبِ وأفْضَلُهُ). والمعنىٰ المناسب للسياق هو ما ذكره ممّا يتعلّق بـ (المنيّ) الجماع، الذكر ، فرج المرأة..الخ: تبلىٰ السرائر: تبلىٰ الأعضاء البدنية المفرزة للمنيّ. والمعنىٰ العامّ: إذا كان الله قد خلق الإنسان من منيّ فهو قادر علىٰ خلقه من جديد يوم القيامة من دون منيّ ولا جماع.. الخ "[٢].

وهذا التفسير الذي رجّحه الجابريّ مخالفاً به جميع المفسّرين، من عجائب ما اطّلعت عليه من التفسير في هذا الزمن، بل هو جرأة عجيبة علىٰ كتاب الله تعالىٰ، فقد جمع بين الجهل باللغة، والجهل بالتفسير، مع الكتمان والتزوير، وذلك أنّه بنىٰ تفسيره علىٰ أساسين واهيين، **أحدهما**: أنّه ظنّ أنّ قوله تعالىٰ ﴿تُبْلَى﴾ من البِلىٰ، وهو الفناء، ولو كان كذلك لكان بالفتح (تَبلىٰ)، والصواب أنّه من البلاء وهو الاختبار[١]. **الأساس الثاني** أنّه أخذ بالمجاز من اللغة وترك الحقيقة، مع أنّه زوّر في النقل عن صاحب القاموس، فكتم أوّل كلامه، وهو قوله: " السِّرُّ: ما يُكْتَمُ،

(٢) فهم القرآن: ١/ ١٨٤، ١٨٥.

(١) ينظر: لسان العرب: ١/ ٣٥٥، مادة (بلا).

كالسَّرِيرَةِ، ج : أسرارٌ وسَرائِرُ.."[٢] إلىٰ أخر ما نقل عنه ممّا يوافق مراده، وهذا إخلال بالأمانة العلميّة، وكتم للعلم، ولهذا قال الزبيديّ ـ رحمه الله ـ: " السِّرُّ بالكسر: ما يُكْتَمُ في النَّفْسِ من الحَدِيث، قال شيخُنَا: وما يَظْهَرُ لأنّه من الأَضداد. قلت: يُقال: سَرَرْتُه: كَتَمْتُه وسَرَرْتُه: أعْلَنْتُهُ. وسيأْتِي قريباً كالسَّرِيرةَ. وقال الليث: السِّرُّ: ما أَسْرَرْتَ به والسَّرِيرَةُ : عَمَلُ السِّرِّ من خَيْرٍ أو شَرٍّ ، ج: أَسْرَارٌ وسَرَائِرُ "[٣]. ثمّ ذكر أنّ إطلاقه علىٰ الجماع والذَّكَر والنكاح... الخ، من المجاز. ومع ذلك فلا يُجمع علىٰ سرائر. وإنّما يقال السرّ بلا جمع. ولو سلّمنا جدلاً أنّ ذلك يسوغ في اللغة، فإنّ تفسيره السرائر بأنّها الأعضاء البدنية المفرزة للمني تفسير في غاية الغرابة والنكارة، ولا يعرفه العرب فضلاً عن عامّة الناس، وهو لا يتفق مع ما اختاره من اللغة (الجماع، المني، النكاح) إذ الواجب أن يكون المعنىٰ حسب اختياره: (يوم يبلىٰ الجماع والمني والنكاح) وهذا لا يستقيم أبداً..ثم إنّ السياق لا يساعد عليه من وجوه عدّة ، منها: قوله (يوم) والمقصود به يوم القيامة. والأعضاء المفرزة للمنيّ ـ حسب تفسير الجابريّ ـ تبلىٰ قبل ذلك في الدنيا. ومنها: قوله في آخر السورة: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾ ، والكيد هو المكر والحيلة والتدبير الخفيّ، وهو مناسب للحديث عن السرائر وما تخفيه النفوس.

٢. **عند قوله تعالىٰ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ [التكوير: ١٤]**

ذكر الجابريّ أنّ هذا هو جواب القسم!.وقال في تعليقه: " في هذه السورة قَسَمان كما هو واضح، الأوّل قسم بالظواهر الكارثية.. "[٤] إلىٰ آخر ما ذكر! وهذا أمر في غاية العجب، وجهل فظيع باللغة العربية، فـ (إذا) أداة شرط وليست حرف قسم، وقوله تعالىٰ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ هو جواب الشرط. فكيف يتصدّىٰ لتفسير القرآن العظيم من لا يفرّق بين القسم والشرط! فهذا أمر لا يخفىٰ علىٰ صغار طلبة العلم، فضلاً عن الأساتذة الكبار.

(٢) القاموس المحيط: ص ٥١٨.
(٣) تاج العروس: ص ٢٩٣٨، مادة (سرر).
(٤) فهم القرآن: ١/ ٤٢

المطلب الرابع
الشذوذ والإغراب، والترجيح بمحض الهوى والرأي

وهذا كثير أيضـًا في تفسيره، ومن ذلك:

١. **تفسيره للضرب عند قوله تعالىٰ:** ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾[النساء:].

تحدّث الجابريّ عن هذه الآية وسياقها، وذكر أنّها طرحت العلاقات الحميميّة بين الزوجين بوضوح، ورسمت لها حلولاً علىٰ أساس المساواة! هكذا يقول. ثمّ أردف قائلاً: " وما يهمّنا هنا التركيز عليه.. هو ما أثير ويثار حول تنصيص الآية الخاصّة بنشوز المرأة علىٰ (ضرب الزوجات)، وقد فهم كثير من القدماء والمحدثين! الضرب كما يفهم عند الخصومة..إنّ الضرب المطروح هنا ليس هو (الاعتداء بالضرب) بمعناه الذي يفهم عند الخصومة والعداوة، كلا هذا لا وجود له في القرآن". إلىٰ أن قال: " واهجروهنّ في المضاجع: لا تجامعوهنّ بالقوّة [هكذا فسّر الهجر!]، واضربوهنّ: هناك في المضاجع ضربـًا غير مبرّح. وقد رويت عدّة أخبار في تحديد معنىٰ الضرب غير المبرّح، منها حديث نبويّ ورد فيه، عندما سئل النبيّ عن معنىٰ الضرب هنا، قوله: ((الضرب المبرّح هو مثل الضرب بالسواك ونحوه))[(١)] غير مؤثّر، ونسبوا مثل هذا إلىٰ ابن عبّاس أيضـًا[(٢)]. وفي لسان العرب: السواك ما يدلك به الفم من العيدان. وأيضـًا: السواك والتساوك: السير الضعيف". ثم خلص إلىٰ أنّ المقصود بالضرب هنا " ليس من النوع الذي يجعل المرأة تخاف وتذعن، بل هو من قبيل التسوّك (دلك الفم بالسواك) وهو بحركة السير الضعيف أشبه! وإذن: ألا يعني ذلك نوعـًا من المداعبة الهادئة علىٰ الفراش لاستثارتهنّ وجعلهنّ يُقبلن

---

(١) هكذا يفعل الجابريّ في تعامله مع السنّة المطهرّة، فلم يذكر لنا مصدر هذا الحديث ولا من رواه، والحقيقة أنّه لم يرد عن النبيّ صلّىٰ الله عليه وسلّم في ذلك شيْ سوىٰ قوله في الصحيح " ضربـًا غير مبرّح "، وإنّما الذي ورد عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، وهو ما أشار إليه الجابريّ بقوله: " ونسبوا مثل هذا إلىٰ ابن عبّاس" هكذا أيضـًا بلا تخريج ولا تحقيق!

(٢) أخرجه ابن جرير عن عطاء قال: قلت لابن عباس: ما الضرب غير المبرح ؟ قال : بالسواك ونحوه. الدرّ المنثور: ٢/ ٥٢٣.

علىٰ الجماع أو يطلبنه بالأحرىٰ "[٣]. هذا ما خلص إليه الجابريّ في معنىٰ الضرب، وهو تفسير في غاية النكارة والغرابة، بل هو مدعاة للتندّر والضحك، فما علاقة الضرب التأديبي بالمداعبة! وكيف يؤمر قبل ذلك بهجرها في المضجع ثم يؤمر بمداعبتها! فالضرب هو آخر الحلول، وأكثرها أثراً علىٰ النفس لكسر تعاليها وغرورها. وإنّ ما حمل الجابريّ علىٰ ذلك؛ هو حرصه علىٰ تفسير القرآن تفسيراً عصرياً يتوافق مع مبادئ الحضارة الغربية التي تجرّم ضرب المرأة، وترىٰ ذلك ضرباً من ضروب التمييز وعدم المساواة!. ومعنىٰ الآية واضح لكلّ عربيّ، لا سيما وقد جاءت السنّة الصحيحة بتقييده بالضرب غير المبرّح، إذ المقصود هو التربية والتقويم، وليس التشفّي والانتقام، وقد دلّت الدراسات النفسية علىٰ أنّ بعض النفوس مصابة بانحراف نفسي غريب المزاج، يلذّ لها أن تتلقّىٰ معاملة قاسية مؤلمة جسدية أو نفسية، فلا يطيب مزاج أصحابها ولا يعتدلون إلا بالضرب أو ما يشبهه من مؤلمات، وأكثر ما يكون هذا اللون من الانحراف، في صنف النساء، ويطلق عليه علماء النفس اسم (الماسوشزم). فسبحان الحكيم العليم[١].

٢. تفسيره لأوّل سورة الفجر.

وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ [الفجر: ١ – ٣]. قال عند تفسيره لهذه الآية: " الأشياء الخمسة المقسم بها هنا لا بدّ أن تكون معروفة عند العرب قبل الإسلام. بعض المفسّرين يقولون إنّ المقصود بها هو ما يجري فيها من مناسك الحجّ، وهذا لا يصحّ ـ من الناحية المبدئية ـ إلا إذا كانت هذه المناسك متطابقة مع ما كان العرب يفعلونه قبل الإسلام. وجواب القسم هو: إنّ هذه المناسك ـ المفروض أنّها موروثة من زمن إبراهيم عليه السلام ـ تستحقّ في نظر العاقل العارف بأصلها ومصدرها أن يقسم بها قسماً عظيماً. هذا التفسير كان سيكون مقبولاً لو أنّ السورة نزلت بعد أن فرضت فريضة الحجّ بمضامينها

(٣) فهم القرآن: ٣/ ٢٥١، ٢٥٢، (باختصار).

(١) ينظر: أجنحة المكر الثلاثة: ص ٦٠٦.

الإسلامية، ولكن هذا غير وارد، وإنّما ذهب المفسّرون إلىٰ هذا المنحىٰ في التفسير لأنّهم يتّبعون ترتيب المصحف فيبدؤون بالبقرة متتبّعين القرآن المدني ليعودوا بعد ذلك القهقرىٰ مع القرآن المكّيّ من أواخر ما نزل منه إلىٰ أوائله، والسورة التي نحن بصددها من الأوائل، ولكنّها عندما يأتي دورها في التفسير ضمن الأواخر فهي تفسّر علىٰ ضوء ما مضىٰ، ومنها تفهم مناسك الحجّ كما أقرّها القرآن والسنّة. وهذا النوع من القلب يطال كتب التفسير كلّها، أعني أنّ عملية التفسير تتعامل مع القرآن مقلوباً. نعم ينتبه المفسّر من حين لآخر إلىٰ زمن نزول الآية، ولكنّ ذلك لا يحصل - في الغالب - إلا عندما يتعلّق الأمر بآيات الأحكام ؟ من أجل ما تقدّم، وبسببه؛ لا نرىٰ في تفسير الموضوعات الخمسة المقسم بها ما يبرّر القسم بها، خصوصاً أنّ مناسك الحجّ في الجاهلية كانت مناسك وثنية قد اختلطت مع عبادة الأصنام، وبالتالي لم تكن قد اكتسبت بعدُ ما أضفاه عليها القرآن من خلفيّة إسلامية. ولذلك نرىٰ أنّ الأنسب هو القول إنّ المقصود بالأشياء المقسم بها هو تعاقبها كظواهر طبيعيّة تدلّ علىٰ خالقها وعلىٰ بديع صنعه: تعاقب الليل والنهار، وتعاقب الشفع والوتر، وتعاقب الليالي العشر (المفترض أنّها معروفة عند العرب) ، وهذا التعاقب يستحقّ أن يكون قسماً عظيماً، لأنّه قانون يجري علىٰ الكون كما يجري في التاريخ: بيان ذلك تقرير السورة لما فعل الله بأقوام تعاقبت ، كذّبت رسلها وطغت: عاد، ثمود، فرعون.. لقد كان الله لهم بالمرصاد يراقبهم، فعاقبهم بأن سلّط عليهم سوط العذاب، كما في السورة"[1]. هذا نصّ كلامه، وما قاله من أنّ فريضة الحجّ لم تُفرض إلا بعد نزول هذه الآيات صحيح، لكنّ هذا لا يمنع من تفسيرها ببعض مناسك الحجّ لوجوه:

أحدها: أنّ الحجّ كان معروفاً في الجاهلية، ومعظّماً فيها، وقد أقرّ الإسلام الكثير من شعائره المعروفة، التي هي في الأصل موروثة عن أبي الأنبياء إبراهيم الخليل - عليه السلام -.

(١) فهم القرآن: ١/ ٥٣، ٥٤.

الثاني: أنّ الله ـ جلّت حكمته ـ قد يذكر بعض الغيوب المستقبلية ـ لا سيّما بعض الأحكام ـ قبل فرضها، تنبيهاً إلىٰ أنّها ستفرض في المستقبل، ومن ذلك قوله تعالىٰ في سورة المزمّل: ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمّل: ٢٠] ـ وهي من أوائل ما نزل، مع أنّ القتال لم يفرض إلا في العهد المدنيّ، وقد قال بذلك الجابريّ نفسه عند تفسيره لهذه الآية(٢)، ولذا ذكر ابن عاشور ـ رحمه الله ـ أنّ قسم الله تعالىٰ بالليالي العشر في هذه الآية ـ وهي ممّا نزل بمكّة ـ قسم بما في علمه من تعيينها في المستقبل(٣).

الثالث: أنّ هذا التفسير ذهب إليه كثير من السلف، وهو قول جمهور المفسّرين، بل كلّهم، علىٰ اختلاف بينهم في بعض التفاصيل.

الرابع: أنّه لا توجد ظاهرة طبيعيّة تسمّىٰ الليالي العشر! فكيف تفسّر بذلك.

الخامس: أنّ ما ذهب إليه الجابريّ قول شاذّ لم يقل به ـ حسب علمي واطلاعي ـ أحد من المتقدّمين ولا المتأخرين، وهذا كاف في بطلانه وردّه.

وقول الجابريّ إنّ المفسّرين في تفسيرهم يتعاملون مع القرآن مقلوباً..! غير صحيح، فهم علىٰ علم بالمتقدّم والمتأخّر، ولكنّهم يعتمدون علىٰ أقوال السلف الذين هم أعلم بتفسير القرآن من غيرهم، ويذكرون ذلك بالأسانيد، ولا يعتمدون علىٰ الهوىٰ والرأي، الذي لا يستند إلىٰ علم صحيح، ولا نقل موثّق.

٣. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤]:

قال الجابريّ: " ذهب المفسّرون في تفسير هذه الآية مذاهب شتّىٰ، بعضهم يربطها بأحداث وقعت في المدينة وهذه سورة مكيّة باتّفاق! وآخرون تجاهلوا السياق تماماً.. وفي رأينا أنّ الآية متّصلة بما قبلها وما بعدها كما يلي: ﴿ وَكَذَٰلِكَ

(٢) ينظر: فهم القرآن: ٢/ ٣١٧.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٠/ ٢٧٨.

﴿أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ فإذا كان لم يحدث لهم ذكراً ولم يؤمنوا ولم يهلكهم الله كما فعل بالأقوام الماضية؛ فإنّ ذلك ليس راجعًا إلىٰ أنّ الله لم يستطع حملهم علىٰ الإيمان أو لم يقدر علىٰ إهلاكهم، كلا؛ إنّه يمهلهم كما أمهل الذين من قبلهم: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أن يخلف وعده، فانتظر حتىٰ ينزل عليك القرآن كلّه ثمّ احكم بعد ذلك: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ بتنفيذ وعده ﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ كلّه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾. وتأتي قصّة آدم ونسيانه.. ثمّ عقابه بإخراجه من الجنّة ثمّ قبول توبته.. يأتي ذلك متمّمًا للسياق وصلاً بقوله تعالىٰ (لاحقًا) ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ فئات من قريش ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ﴾"[(1)]. ا.هـ.

ما ذكره الجابريّ ها هنا من أنّ المفسّرين "ذهبوا في تفسير هذه الآية مذاهب شتّىٰ " هو من تهويلاته المعتادة، فحاصل أقوال المفسّرين في ذلك خمسة أقوال؛ أربعة منها متقاربة، وواحد بعيد، وقد ساقها القرطبيّ في تفسيره فقال: " علّم نبيّه كيف يتلقّىٰ القرآن، قال ابن عبّاس: كان عليه السلام يبادر جبريل فيقرآ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصًا علىٰ الحفظ، وشفقة علىٰ القرآن مخافة النسيان، فنهاه الله عن ذلك، وأنزل ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾، وهذا كقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ [القيامة: ١٦] علىٰ ما يأتي. وروىٰ ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: لا تتله قبل أن تتبيّنه. وقيل: ﴿وَلَا تَعْجَلْ﴾ أي لا تسل إنزاله من قبل أن يقضىٰ، أي يأتيك وحيه. وقيل: المعنىٰ لا تلقه إلىٰ الناس قبل أن يأتيك بيان تأويله. وقال الحسن: نزلت في رجل لطم وجه امرأته، فجاءت إلىٰ النبيّ ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ تطلب القصاص، فجعل النبيّ ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ لها القصاص، فنزل ﴿ٱلرِّجَالُ

(١) فهم القرآن: ١/ ٣٠٤.

قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء: ٣٤]"[١]. والقول الخامس هو الذي عناه الجابريّ بقوله: "بعضهم يربطها بأحداث وقعت في المدينة وهذه سورة مكيّة باتّفاق!"، وهذا صحيح، فإنّ الشرائع لم تنزل إلا في المدينة، ولذا ردّه بعض المفسّرين. أمّا الأربعة الأولىٰ فهي متقاربة ومحتملة، وإن كان أصحّها هو الأوّل لوجوه: **أحدها**: أنّه نظير قوله تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ ﴾، بل إنّ في هذه الآية لتفسيراً بيّناً لمعنىٰ الاستعجال في الآية التي نحن بصدد الحديث عنها، يغني عن أيّ تفسير آخر. **الثاني**: أنّ هذا القول لا يحتاج إلىٰ تقدير متكلّف، بخلاف الأقوال الأخرىٰ. **الثالث**: أنّ هذا القول هو الأوفق للسياق، وقد بيّن ذلك الطيبيّ فيما نقله عنه الألوسي، حيث ذكر أنّ " هذه الجملة عطف علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾لما فيه من إنشاء التعجّب، فكأنّه قيل: حيث نبّهت علىٰ عظمة جلالة المنزِل، وأرشدت إلىٰ فخامة المنزَل؛ فعظّم جناب الملك الحقّ المتصرّف في الملك والملكوت، وأقبل بكلّك علىٰ تحفّظ كتابه وتحقّق مبانيه، ولا تعجل به. وكان ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ إذا ألقىٰ عليه جبريل ـ عليه السلام ـ القرآن، يتبعه عند تلفّظ كلّ حرف، وكلّ كلمة، خوفاً أن يصعد ـ عليه السلام ـ ولم يحفظه ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ فنُهي عليه الصلاة والسلام عن ذلك إذ ربما يشغل التلفّظ بكلمة عن سماع ما بعدها، ونزل عليه أيضاً: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ ﴾ .. الآية"[٢]. وهذا الوجه الثالث فيه جواب عمّا ذكره الجابريّ من تجاهل بعض المفسّرين للسياق.

أمّا القول الذي ذهب إليه، فهو في غاية الضعف، لذا لم يذكره أحد من المفسّرين، بل لم يحكه أحد منهم، بل لعلّه لم يخطر علىٰ بال أحد منهم، إذ كيف يؤمر النبيّ ـ صلّىٰ الله عليه وسلّم ـ بالانتظار حتىٰ ينزل عليه القرآن كلّه ليحكم علىٰ المشركين!، وكيف ينهىٰ عن (تنفيذ وعده) وهو لا يملك ذلك، وأيّ وعد هذا الذي نهي عن تنفيذه!!، فهذا أقرب إلىٰ اللغو، والله أعلم.

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٢٢٢.

(٢) روح المعاني: ١٦/ ٢٦٨.

٤. **ومن أقواله الشاذة:**

ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾[النمل: ٨٢]، وقد ذهب في تفسيره للدابة مذهباً غريباً وشاذاً مخالفاً للأحاديث الصحيحة، وقد سبق ذكر تفسيره والجواب عنه في المبحث الأوّل.

* * *

الخاتمة

في ختام هذا البحث، هذا ملخّص ما تمّ التوصّل إليه من نتائج وتوصيات:

أولاً: النتائج:

١. أنّ هذا القرآن العظيم هو كلام ربّ العالمين، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

٢. أنّ الله ـ جلّ في علاه ـ قد تكفّل بحفظ هذا القرآن، ألفاظه ومعانيه، فقال سبحانه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]. وأنّ أيّ محاولة للنيل من هذا القرآن ستبوء بالفشل.

٣. أنّ جهود أعداء الإسلام في محاولة النيل من هذا القرآن لم تنقطع منذ نزل علىٰ محمّد، صلّىٰ الله عليه وسلم، وإلىٰ يومنا هذا، ولن تنقطع حتىٰ يأتي أمر الله.

٤. أنّ الله، عزّ وجلّ ، قد سخّر لهذا القرآن رجالاً يذودون عنه، ويكشفون زيف أعدائه، وتخرّصاتهم وأباطيلهم.

٥. أنّ جهود الأعداء في النيل من هذا القرآن قد تنوعت واختلفت، في أهدافها ووسائلها وأساليبها ومناهجها. وآخرها ما يسمّىٰ بالقراءات الحداثية للقرآن من أجل رفع القدسية عنه، وتفريغه من محتواه الذي أقضّ مضاجعهم، ووقف عائقاً صلباً أمام مشاريعهم وأفكارهم التي يهدفون إلىٰ بثّها في عقول المسلمين.

٦. أنّ ممّا يؤسف له أن يشارك في هذه الجهود المضللة بعض أبناء المسلمين المخدوعين ممّن أسماؤهم محمّد وأحمد وحسن .. الخ، الذين غُسلت أدمغتهم علىٰ أيدي الأعداء من المستشرقين وغيرهم، بعد أن يئسوا من تحصيل مرادهم بأيديهم.

٧. أنّ توجّه بعض هؤلاء لتفسير القرآن ـ ومنهم الجابريّ ـ ليس من أجل بيان معانيه وتوضيح ألفاظه، فهم ليسوا أصلاً من أهل هذا الفنّ والتوجّه، وليس مرادهم تحصيل اعتقاد منه أو هداية، وإنّما مرادهم التشكيك في بعض عقائده وأحكامه، وإخضاعه للأفكار والثقافة الغربية أو التغريبية، من أجل الهيمنة والاستعلاء علىٰ أمّة

الإسلام، فيما يعرف بالغزو الفكري والثقافي، وهو أشدّ وطأً من الغزو العسكري.

٨. أنّ "العقل" نعمة كبرىٰ من الله تعالىٰ، لكنّه إذا كان محكوماً بالهوىٰ أو طلب الدنيا، أو بمذهبية مقيتة؛ صار وبالاً علىٰ صاحبه في دنياه وأخراه. يوضّح ذلك:

٩. أنّ هذه الجهود المضللة في ظاهرها تتلبّس بلباس العقل والتنوير، والنقد والتطوير، لإغراء شباب الأمّة بقبولها، وهي في باطنها وحقيقتها تسلك مسلك التدليس والتزوير، والتلبيس والتغرير، وهنا تكمن خطورتها حين تغزو عقولاً غضّة غير متحصّنة بالعلم الصحيح، والاعتقاد الراسخ، فتتمكّن منها.

١٠. وأخيراً فإنّ هذه الجهود المضللة تلقىٰ دعماً كبيراً منقطع النظير، من قبل مؤسّسات وأفراد متنفّذين للترويج لهذا الفكر، فماذا يعني كون الجابري مباشرة بعد أن يخرج الكتاب من بيته في الدار البيضاء، يجد له ناشراً لطبعتين في الوقت نفسه، إحداهما في المغرب، والأخرىٰ في المشرق!.

هذه أهمّ النتائج التي توصلّت إليها.

ثانياً: التوصيات:

١. أوصي الباحثين ببذل الكثير من الجهود في مواجهة هذا الحملات المضللة التي يتعرّض لها القرآن العظيم والشرع المطهّر، لا سيما وأنّ هذه الجهود سريعة ومتجدّدة، وتلقىٰ دعماً كبيراً معنوياً ومادياً.

٢. أوصي الجامعات ومراكز البحوث بالعناية بمثل هذه التوجّهات التغريبية المضللة، وذلك بنشر الوعي بخطورتها، وطباعة البحوث والكتب التي تولّت الردّ عليها وكشف زيفها. كما أوصي الجامعات بتخصيص مادّة دراسية متخصّصة، تعنىٰ بذلك. وبالله التوفيق.

❊　　❊　　❊

المصادر والمراجع

١- أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير، الاستشراق، الاستعمار لعبد الرحمن حبنّكة الميداني، دار القلم: ١٤٢٠ه.

٢- أسرار ترتيب القرآن للسيوطي، دار الاعتصام – القاهرة، ت: عبد القادر أحمد عطا.

٣- البحر المحيط لأبي حيّان، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١: ١٤٢٢هـ.

٤- تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي، دار الفكر - بيروت،١٤١٤هـ،ت:علي شيري

٥- التحرير والتنوير لابن عاشور، مؤسّسة التاريخ - بيروت، ط١: ١٤٢٠هـ.

٦- تفسير البغوي، دار طيبة- الرياض،١٤١٢هـ، ت:محمّد النمر وعثمان جمعة.

٧- تفسير القرآن للصنعانيّ، مكتبة الرشد – الرياض، ط١، ١٤١٠هـ، ت: مصطفىٰ مسلم.

٨- تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، دار المعرفة - بيروت.

٩- تيسير الكريم الرحمن للسعدي، مؤسسة الرسالة.

١٠- جامع البيان في تأويل القرآن للطبريّ، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١: ١٤١٢هـ.

١١- الجامع الصحيح سنن الترمذي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ت: أحمّد شاكر.

١٢- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط٢.

١٣- خلق أفعال العباد للبخاري، دار المعارف - الرياض، ١٣٩٨هـ، ت: عبدالرحمن عميرة.

١٤- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، دار الفكر - بيروت، ١٩٩٣هـ.

١٥- روح الحداثة، المدخل إلىٰ تأسيس الحداثة الإسلامية، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي ـ الدار البيضاء، ط١: ٢٠٠٦.
١٦- روح المعاني للألوسي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
١٧- زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، المكتب الإسلامي ـ بيروت، ط١: ١٤٢٣هـ.
١٨- سلسلة الأحاديث الضعيفة لمحمّد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف – الرياض.
١٩- سلسلة الأحاديث الصحيحة لمحمّد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف – الرياض.
٢٠- سنن أبي داود، دار الفكر ـ بيروت، ت: محمّد محيي الدين عبد الحميد.
٢١- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، دار طيبة- الرياض،١٤٠٢هـ.
٢٢- صحيح البخاري (الجامع الصحيح المختصر) لمحمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، الطبعة ٣ : ١٤٠٧ – ١٩٨٧، تحقيق : د. مصطفىٰ ديب البغا.
٢٣- صحيح مسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي.
٢٤- عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعلامة بدر الدين العيني.
٢٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.
٢٦- فتح القدير للشوكاني، بيروت ـ دار ابن كثير، ١٤١٤ه.
٢٧- فهم القرآن الحكيم، التفسير الواضح حسب أسباب النزول، القسم الأوّل، للجابريّ، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢: آب/ أغسطس ٢٠٠٩م.
٢٨- فهم القرآن الحكيم، التفسير الواضح حسب أسباب النزول، القسم الثاني،

للجابريّ، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢: تموز/ يوليو ٢٠٠٩م.
٢٩-فهم القرآن الحكيم، التفسير الواضح حسب أسباب النزول، القسم الأوّل، للجابريّ، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١: شباط/ فبراير ٢٠٠٩م.
٣٠-القاموس المحيط لمحمّد بن يعقوب الفيروزآبادي، بيروت ـ دار الفكر.
٣١-الكشّاف للزمخشريّ، دار إحياء التراث العربيّ ـ بيروت، ت: عبد الرزّاق المهدي.
٣٢-كشف الخفاء ومزيل الإلباس عمّا اشتهر من الأحاديث علىٰ ألسنة الناس، للعجلوني،إسماعيل بن محمد الجراحي، دار إحياء التراث العربي.
٣٣-الكشف والبيان للثعلبيّ، دار إحياء التراث العربيّ ـ بيروت، ط١: ١٤٢٢هـ.
٣٤-لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن، دار الفكر ـ بيروت، ١٣٩٩هـ.
٣٥-اللباب في علوم الكتاب لابن عادل، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤١٩هـ.
٣٦-لسان العرب لأبن منظور، دار المعارف القاهرة، تحقيق: عبد الله الكبير ومحمّد أحمد.
٣٧-مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، لأبي العبّاس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحرانيّ، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم العاصميّ، وساعده ابنه عبد الرحمن.
٣٨-محاسن التأويل للقاسمي، دار الكتب العلمية. بيروت ـ لبنان.
٣٩-المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبن عطيّة، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، ط١: ١٤٣١هـ.
٤٠-المسند لأبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، مؤسّسة قرطبة – القاهرة.
٤١-المسند للإمام أحمد، المكتب الإسلاميّ ـ بيروت، دار صادق، ت: أحمد شاكر.
٤٢-مسند أبي يعلىٰ، دار المأمون للتراث –دمشق، ط١: ١٤٠٤هـ، ت: حسين سليم.
٤٣-مشكاة المصابيح للتبريزي، المكتب الإسلامي – بيروت، ط ٣: ١٤٠٥هـ،

ت: الألباني.

٤٤–المصنف في الأحاديث والآثار للحافظ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، دار الفكر ـ بيروت.

٤٥–المعجم الأوسط للطبراني، دار الحرمين – القاهرة، ١٤١٥هـ، ت: طارق ابن عوض الله.

٤٦–معرفة السنن والآثار لأبي بكر أحمد بن حسين البيهقي، دار الوعي ـ حلب، ط١: ١٤١٢هـ، تحقيق: عبد المعطي قلعجي.

٤٧–مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط الأولىٰ: ١٤١٢هـ.

٤٨–المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنوويّ، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.

٤٩–الموطأ، مالك بن أنس، دار إحياء التراث العربي ـ مصر، ت: محمّد فؤاد عبد الباقي.

* * *